

دراسة الفلسفة في النجف الأشرف

رؤى وملامح

الدكتور محمد جواد الطريحي^(*)

أصالة السّمة الحضارية

تعدّ مدينة النّجف الأشرف إحدى المنارات الكبرى بين عواصم المعرفة الإسلامية والثقافة الدّينية في العالم وتحتل مكانة الحاضرة الأولى للمسلمين الشّيعّة الإمامية. وقد عُرف امتيازها طوال الحقب التاريخيّة إلى اليوم بالتراث العلمي الضخم الذي أسسته، وعنايتها بعلوم الشريعة والآداب العربيّة التي كانت شاهداً على ريادتها ومراحل تنميتها عبر ما يفوق الألف عام من الزّمان.

ومما يدلّ على دورها الحضاري وتفوقها في التأسيس والتطوير للعلوم العربيّة والإسلامية ذبوع شهرتها باعتبارها معلماً خلاّقاً في جوانب مهمة من الإبداع الدّهني بما لها من دور في صياغة العقل الإسلامي وتشكيل مساحات معرفية رائعة في اتجاهات التفكير الدّيني والعقلي، والنهوض بواقع الفكر الإسلامي بما اتصف به من أصالة ذاتية في آفاق التّربية والتّعليم وتهذيب السّلوک، وبناء أسس رصينة المبنى، دقيقة المنهج في أصول المباحث الفقهيّة والأصولية والكلامية مع التّواصل التّام والتّلاقح في تجسير ما يطرق ساحة المعرفة الدّينية باتجاهاتها المذهبية المتعددة بالتصويت أو التوفيق بالمقارنة أو تقريب وجهات النّظر واحترام الرّأي والرّأي الآخر يقابل ذلك عملية وعي وفهم ما شهده تاريخ العلوم العصريّة بمستوى إنجازاته العقليّة، وإبداعاته التكنولوجية، والرؤى الفكرية المعاصرة، ونزعات التحرر الوطنيّة والعقيدية، فقد كان للنجف رؤيتها وموقفها الفاعل ومشاركتها على مسرح الأحداث والوقائع بما تعنيه من التفاعل والأثر على تطلعات خطاب النهضة الحديثة ومعطيات التّغريب والاستعمار الحديث في واقع الأمة العربيّة الإسلاميّة.

(*) فاضل، أديب، شاعر، قاض، دكتوراه في القانون.

يمثل هذا البحث إطلالة موجزة في ضوء السيرة العلمية للشيخ المظفر (قدس سره) وجهوده دارساً ومدرساً وباحثاً فيما أغنى به آفاق وتطلعات دراسات الفلسفة وبحوث علم المعقول في المدرسة النجفية مما يؤشر أصالتها وتجدرها. ونفي ما علق بالأذهان من مناهضتها في هذا المضمار.

ويشهد التاريخ النجفي بترائه العريق معالم من شهادات الحضور والمجاورة والإقامة والتوطن فيها لصفوة من علماء الشريعة وأساطين الحكمة الإلهية ونوابغ المعرفة الإسلامية الذين تعاقبوا وما برحوا يتوافدون رغم الصعاب وشدة المحن التي تراكمت مرّ الأحقاب لنيل شرف الانتساب علمياً إلى مدرستها والتشرف بالدفن في ثراها المقدس.

إن هذه السمة الحضارية للنجف تمثل سر عظمة النجاح والاطراد فيما أبدعته عقول علمائها ومفكرها بما عرفوا به من الشفافية والمرونة في التعاطي والاتصال وسرعة الانجاز لما يمتلكونه من إجادة ومهارة في أداء مسؤولياتهم تجاه العقيدة والفكر والتاريخ وما يبرز قوة الشخصية النجفية وسمو تفكيرها وحرصها بأن لها في كل قضية تهمة الإسلام والمسلمين موقفاً ورؤية، وما أحاديث إقصاءها وتهميشها! إلا بحكم الدليل القاطع على مدى تأثيرها الفاعل في الأحداث المحلية والإقليمية والعالمية.

ومع ضخامة ما أبدعته مدرسة النجف في دلالات التراكم المعرفي فقد التبس الأمر على البعض خاصة ما يتعلق بريادتها لدراسات الفلسفة والحكمة الإلهية وفنون المعقول ومصادرة إغناؤها هذا المضمار^(١) بما يمتلكه من أهمية أشاد بها أحد الأعلام الأفاضل من خريجي جامعته بقوله: ((إن العقيدة الشيعية هي من أعمق العوامل وأبعدها أثراً في التوجيه وفي تكوين الروح الفلسفي في نفوس أتباعها. فالفكرة الشيعية قائمة في أكثر جوانبها على التأمل والمنطق المبنية على تفهم الواقع الإنساني وعلى فهم الروح العامة في الشعوب ولا سيما في موضوع الإمامة والعصمة والجبر والاختيار، وكانت نظريات الشيعة وخاصة السياسية أثبتت جدوراً وتأثيراً))^(٢). ((وإن في النجف الأشرف علماء في الفلسفة كما فيها علماء في الفقه وأصوله فلماذا لا يكتبون في هذا الموضوع؟ لماذا لا يثبتون بالأرقام للعالم كله أن للمسلمين فلسفة مستقلة عن كل فلسفة وأنهم مستقلون لا ناقلون عن اليونان وأن الفرق بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية كالفرق بين المركب الشراعي وبين المركب البخاري))^(٣).

(١) مما يفند هذا المدعى أن للفلسفة الإسلامية -بوجه أخص- وجوداً في أوساط الحوزات العلمية طلابها وأعلامها على مستويات تختلف من حيث القوة والضعف بحسب الظروف الموضوعية ومقتضى الاتجاهات الفكرية السائدة زماناً ومكاناً تشهد على ذلك سير الأعلام ومصنفاتهم وتأثر مناهج العلوم الشرعية بأساليب ومناهج العلوم العقلية.

(٢) العلامة الرّاحل محمد جواد مغنية، مقدمة كتاب فلاسفة الشيعة للشيخ عبد الله نعمة.

(٣) محمد جواد مغنية في مقالة الموسوم (متى نقرأ كتاب النجف في ألف عام) وقد عهد إليه مهمة تدريس مادة الفلسفة الإسلامية في الجامعة اللبنانية.

وقد أثبت الواقع العلمي والعملية ما يشخص مستوى الرصانة والإثارة لتربة النجف الخصبة للفلسفة إذ نبتت وتعمقت فيها النظريات اللغوية والاجتماعية التي تناولها علم الأصول بالدرس والنظر وفق المنهج العقلي، وإذا ما واكبنا مسيرة التفكير العقلي عند المسلمين وتطور النظريات والأفكار فسوف نكتشف أن لمدرستي الفلسفة والكلام في النجف - وما يدور مدارهما من علوم - الجوانب الواسعة المدى بأبعادها الجديرة بالبحث والتدوين فيما قدمته هذه الحاضرة العلمية العميقة الجذور من ثمار ونتائج نوعية ومفصلية تبدو أهميتها جلية في أصالتها وتطوير مراحل التفكير العقلي في الإسلام الذي رسمته آيات القرآن الكريم، وتوافرت على تعميقه معارف أهل البيت عليهم السلام في ضوء التخطيط لها وبناء قواعدها ومتابعة نشؤها وترسيخ معطياتها وتقويم مساراتها.

وعند إمعان النظر في آفاق التأسيس للجامعة النجفية يتضح أن الإمام علياً عليه السلام وهو ((فلك الحقيقة، وخزانة العقل، والإنسان المثال إذ استكمل الحكمة النظرية بالقوة القدسية بل كان بين الصحابة كالمعقول بين المحسوس))^(١). فهو لذلك قد ارتقى بدوره الرسالي لوضع حجر الأساس في مدرسة الحكمة العقلية عندما بادر إلى طرح إفاضة وبنات أفكاره بخطب نهج البلاغة على منبر الكوفة^(٢)، وبدروسه التي كان يملئها على صرح (الذكوات البيض)^(٣) في بقعة الغري المشرفة على صفوة النخبة الذين اختارهم من أصحابه، ثم تواصلت المسيرة العلمية برعايته الخاصة التي ملأ صداها الزمن الغابر والحاضر في تأسيس حلقة الدرس في المباحث الإلهية فكان هو الرائد لفكرة علم التوحيد^(٤) الذي تعلمه واستفاده من فيوضات صاحب الرسالة

(١) معراج نامه لابن سينا طبعة رشت: ١٧، وانظر هامش الشفاء الطبعة الحجرية القسم الإلهي: ٥٦٤، إلهيات الشفاء المقالة العاشرة: ٤٥٥.

(٢) للشيخ المظفر قدس سره محاضرة قيمة بعنوان (نظرية المعرفة عند الإمام علي(ع) تطرق فيها إلى آثار فلسفة الإمام في الإسلام وهي إضمامة مما ألقاه رحمه الله في الاحتفال العالمي الذي أقيم في باكستان بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على ميلاد أمير المؤمنين).

(٣) جمع الذكوة وهي الجمره الملتهبة يقال للشمس (ذكاء) لأنها تذكو كما تذكو النار عند الشروق واكتبت قدسيته بعد دفن جسد الإمام علي(ع) بين ظهرانيها وقد تسمى الرّيوات أو أن الذكوات تصحيف من الرّيوات وهي مرتفعات تطل على الوادي أخذت مسيات جديدة لكل منها ففي محلة العمارة (جبل شرف شاه) وفي محلة المشراق (جبل الذيك) وفي محلة البراق (جبل النور). انظر الدكتور حسن الحكيم، المفصل في تاريخ النجف الأشرف ١: ٢٥٢ وما بعدها.

(٤) أفاض شيخنا المظفر في هذا المعنى يبحثه الفلسفي الرائع (معجزة أمير المؤمنين(ع) في علمه). ومحاضراته في (نظرية المعرفة عند الإمام علي)، مجلة النجف السنة الأولى.

المحمدية عليه السلام وبعده تعاقبت أدوار أبنائه أئمة أهل البيت عليهم السلام (١) برقد هذا المنحى الفكرى فى أجيل استغرقت قرولاً من الزمن تخرجت فىها مئآت الآلاف من مفاخر العلماء الحكماء لتأصل دراساٲ الفلسفة الإسلامىة اللى انهلٲ من المعىن الصأفى لمرسة النبوة والإمامة.

عمق المسار الحضارى:

ولم تكن المبادرة العلوية على تفردھا بمعزل عم تجربة التفكىر الفلسفى فى تاريخ الإنسانىة فى مخاضها العلمى من حىٲ الزمان والمكان بدلالة نظرىة المثلث الحضارى (٢) وارتباطها بتوطئة الإمام على عليه السلام والتمهيد لحاضرته العلمىة بما ىتجسد فى غمار البحث التاريخى لجغرافىة المنطقه فى تواصل الإرث المعرفى (٣) لمدينة (الحىرة) فى التلقى والتلاقح بمحضارة (بابل) (سورا) وميراثهما القدىم وما شهدته هذه المدينة عهد مملكتهما العربىة باعٲناق ملوك الحىرة اللىانة النصرانىة وفق المذهب النسطورى الذى جعلها مفتوحة على تياراٲ الفلسفة اليونانىة فقد كان هؤلاء ىميلون إلى النظر العقلى خلافاً للمسىحىة المنتشرة فى داخل الجزىرة العربىة وبعض القبائل الحجازىة والىمنىة واللى كانت ٲعتقد واحدة للسىد المسىح وٲمىل إلى الرهبنه وكانوا ىختلفون عن الكنيسة البىزنطىة اللى كانت رؤىتها فى مقولتهم هرطقة وٲجديفاً بحق السىد المسىح مما دعاها إلى اضٲهادهم بسبب أنهم كانوا قد درسوا فى (نصىىن) كٲب اليونان وفلسٲتهم وٲرجموا كٲب أرسٲو إلى السرىانىة ثم أصبحت الحىرة مقراً لهم بعد إخراجهم من نصىىن وأٲجه بعضهم إلى (كسكر) (٤) حىٲ شاركوا فى ٲدرىس الفلسفة اليونانىة وجعلوا من منطقه جنوب العراق مركزاً للفلسفة اليونانىة بٲرجمه سرىانىة وبقىٲ هذه ٲرجمات معٲمده حتى فترة متأخرة (٥).

(١) ىشر الشىخ المظفر إلى البرودة بىن أهل اللىن وطلاب الفلسفة مع ٲظاهر الفلسفة الإلهىة بٲأىد اللىن الإسلامى وظهور ٲناىج اٲفاقها مع العقائد الٲابٲة، واستمرار الحرب العوان بىن ٲطرفىن رغم محاولاٲ اٲٲابق أو عدم الاختلاف. وانعكاس ذلك على الٲباع بىن علم الكلام والفلسفة فىما سجل أئمة آل اللىٲ ٲحذىرهم ونهىهم من إٲباع المتكلمىن من غير دلىل لأنهم علمونا إٲباع الإسلام بأكملة، ونهونا عن إٲباع رأى علمى من غير علم وىقن. ولعل معرفة هذا الأمر بوضح دعوى ماضة دراسة الفلسفة فى إطار الحوزة العلمىة من بعض الوجوه. أنظر البحث القىم فى مجلة البذرة (ابن سىنا وعلاقة اللىن والفلسفة) للشىخ المظفر ومحاضراته المٲبوعة على طلابه بكلىة الفقه فى الفلسفة الإسلامىة: ٧٦.

(٢) ٲنطق هذه النظرىة بالأصالة الحضارىة للنجف وملخص ما ٲعنىه من العمق الحضارى فى المنطقه اللى ٲبدأ أطراف المثلث فىه بالحىرة ثم الكوفة ثم النجف، وهناك رؤىة أخرى بقدم الكوفة وسبقها على هذا ٲرتىب كما ىرد لاحقاً.

(٣) مع الاحتفاظ بقدسىة المبادرة العلوىة وخصوصاٲها بمدينة النجف وأسس ٲكوىنها المعرفى.

(٤) مدينة ٲقع قرب واسٲ اللى ٲشمل اللىوم مدىٲى الكوت والعمارة.

(٥) انظر معدن الجواهر بٲارىخ البصرة والجزائر تألىف نعمان بن محمد بن العراق ٲحقىق اللىكتور محمد حمىد

أما مدينة الكوفة فقد تأسست فيها قديماً مدرسة سريرية عرفت باسم (مدرسة عاقولا) بقيت إلى عهد الرومان الذين احتلوا العراق وانتقلت إليها الدراسات اليونانية ولما اندرست عاقولا نهضت الحيرة وما حولها من الديار والكنائس بواقعها الفكري ثم انتقل ما في الحيرة إلى الكوفة ثم انتقل ما في الكوفة إلى النجف الأشرف.

وتأتي أهمية مدرسة الكوفة العلمية تعبيراً عن اتجاه فلسفي في الفكر الإسلامي أرساه ورسخ قواعده الإمام علي عليه السلام حيث جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ومن هنا ابتداء النظر والتأويل الفلسفي في الفكر الإسلامي^(١).

إن افتتاح ملوك المناذرة على آفاق الفكر اليوناني والمقولات الكلامية المسيحية كان له الأثر البالغ الذي تجدد فيما بعد العصر الإسلامي ربما يعده الباحثون من الأسباب التي تفسر الطبيعة المعقدة للكوفة بعد تأسيسها وكثرة ظهور الفرق والفتن فيها، في مقابل ما عرفت به هذه الحاضرة من ولائها للإمام علي الذي تقف مع خطه السياسي والفكري وإن من المؤكد بأنه عليه السلام كان على بحركاتها الفكرية التي اتصفت بعمق المحتوى العقائدي والتجذر الديني وتفاعل شريحتها الاجتماعية بهذا الواقع.

تأسيس الفكر الفلسفي في الإسلام:

إن البحث في تاريخ المعطى الفلسفي عند المسلمين يمتد إلى جذور عميقة نمت وتطورت في أصول العقيدة الإسلامية بما رسمه المنهج القرآني ونوهت به السنة المطهرة في عصر الرسالة فإن في آيات القرآن عرضاً مهماً (للرد على المنحرفين الملحدون في حوار عقلي مؤثر وبأسلوب من أروع الأساليب الاستدلالية وأسدها)^(٢) واستمرت على مستوى ما خطه أئمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام حيث (أن الأئمة سبقوا الناس إلى إعطاء الفكرة النهائية لجميع الموضوعات التي بحثها علم الكلام والفلسفة من قبل أن يظهرها عند المسلمين)^(٣).

ولما كان كل علم حيث يبدأ أول ما يبدأ في بحث المسائل البسيطة المتعلقة به ثم يأخذ في النمو والتطور حتى يتكامل فيصبح بنية أو كياناً قائماً بذاته متميزاً عن غيره^(٤).

(١) النجف الأشرف مدينة العلم والعمران، محمد كاظم الطريحي: ١٦.

(٢) الدكتور محمود المظفر في مقاله (علم الكلام) المنشور في مجلة النجف العدد ٦ من السنة الخامسة شوال

١٣٨٢/٥ آذار ١٩٦٣م: ٧٨.

(٣) المصدر السابق، نقلاً عن محاضرات الشيخ المظفر في الفلسفة الإسلامية انظر الدكتور المظفر في بحثه بمجلة

النجف: ٦٦.

(٤) المصدر السابق، الدكتور المظفر: ٧٨.

لذا فإنّ العقل الإسلامي قد تمحور زماناً ومكاناً بحسب متطلبات المرحلة يتطور في عطاءاته في ضوء ما يؤسسه الإسلام، وأمّا الناس فقد جبلوا على طبيعتهم بالتباين فيما يحكمون به تجاه النزعات الفكرية قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(١).

وإذا كانت الحقائق تؤكد: أنّ تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية ولهذا الاختلاف شأن عظيم في ميدان الفن والأدب والسياسة فمن المفيد الإشارة إلى عثور الباحثين على نصوص سريانية من مخلفات العهد الإسلامي الأوّل في العراق وفيها ترجمات لبعض سور القرآن التي تكلمت عن المسيحية نقلها السريان إلى لغتهم في مطلع غزو المسلمين لما بين النهرين لكي يناقشوا مضمونها^(٢).

وقد وقع الخلط لدى الباحثين في أصالة الفلسفة الإسلامية من حيث تأثيرها وتبعيتها لعصور الفلسفة القديمة بمدارسها المختلفة بل إنّ البعض أكد منفاة الفلسفة لطبيعة الروح الإسلامية وبلغ إلى نتيجة عدم قدرة المسلمين لإنتاج عمل فلسفي^(٣) وإنه لم يكن عند واحد من المشتغلين روح فلسفية بالمعنى الصحيح وتجنّى غيره في هذا المنحى بأن الحضارة الإسلامية «متقلبة لا متتجة، آخذة لا معطية، مقلّدة لا مجتهدة، لا ابتداع ولا خلق، بل نقلت إليها الحضارة اليونانية أو التراث اليوناني فأخذت منه ما أخذت وشوهت ما شوهت، ولكن لا خلقت ولا أبدعت أصيلاً»^(٤).

وفي الحقيقة يجد من يحاول استكشاف تاريخ نشوء الفلسفة وتطورها الفكري بشكل عام أنّها تأثرت بعوامل متعددة مكانية وزمانية وشخصية.

وأما بخصوص تأسيس الفلسفة الإسلامية فلا شك أنّ انتشار الفلسفة اليونانية أثار انتباه بعض العرب حيث قلّدوها «تقليداً أعمى من غير نضج فأوجد بلبلة في الأفكار عند المسلمين وشعر المسلمون أنّهم مهاجمون من قبل الفلسفة اليونانية - كما أوجدت الفلسفة الحديثة في عصرنا الحاضر بلبلة في أفكارنا - ولما كانت طبيعة الفلسفة النظر إلى حقائق الأشياء غير مقيدة برأي ولا عقيدة واصطدمت هذه الفلسفة اليونانية ببعض مواقف الدين الإسلامي وأفكاره

(١) هود: ١١ - ١١٨ - ١١٩.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الدكتور علي سامي النشار: ١، ٩٢، ١٠٨.

(٣) انظر عبد الرحمن بدوي في مقدمة كتابه التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية.

(٤) الدكتور النشار المصدر السابق، المقدمة.

تصدى المسلمون للدفاع عن عقائدهم بأسلوب البراهين الفلسفية وحاولوا التنسيق بين الآراء الرأئجة في الفلسفة وبين نظريات الإسلام^(١).

وأما سبب نشوء علم الكلام عند المسلمين فقد كان «للدفاع عن عقائدهم بأسلوب البراهين الفلسفية حيث حاولوا التنسيق بين الآراء الرأئجة في الفلسفة وبين نظريات الإسلام للدفاع عن العقيدة الإسلامية عندما هاجمتها الفلسفة اليونانية واستخدموا الأساليب البرهانية التي تستخدمها الفلسفة.

وقد نهانا أئمة الهدى عليهم السلام وحذرونا من إتباع المتكلمين من غير دليل لأنهم علمونا الإسلام بأكمله ونهونا عن اتباع رأي علمي من غير علم ودليل^(٢).

ويمثل هذا الاتجاه أسلوب التوفيق الذي استعيرت به وسائل الفلسفة لغرض الاستدلال مما ينسجم من أفكارها مع روح العقيدة الإسلامية بما نشأ منه بالتالي (علم الكلام) وهو يعبر بالذات عما قدمه أئمة أهل البيت عليهم السلام حين قاموا «بمحافظة عقيدة الإسلام من الانهيار أمام التيارات اليونانية بمحاربتهم المبدعين المضلين، ولا نجد فيلسوفاً عظيماً في عهد الأئمة عليهم السلام إلا وهو من أتباع أهل البيت عليهم السلام»^(٣).

وإذا استنتقنا ما سطره المظفر في معرض بحثه عن الفيلسوف الكندي نراه يقرر «أنه ظهر في عصر طغت فيه جولات طوائف المتكلمين واتجاهات أفكارهم وتلقوا الآراء اليونانية غير منقحة إذ شاعت بين المسلمين بترجمتها فشوهت كثيراً من العقائد التي لم يتلقوها من مصادرها الإسلامية الأصلية، ولم يكتفوا بالعقيدة القرآنية الخالصة فراحوا يدافعون عن العقائد الإسلامية أو ما تخيلوه عقيدة إسلامية بما عثروا عليه من أبحاث يونانية غير ناضجة التماساً للأدلة العقلية أو شبه الأدلة العقلية مما يظنونهم كان صالحاً لتأييد تلك العقائد وقد لا تكون هي العقيدة الإسلامية التي جاء بها الإسلام.

وهذا مما يعث الاطمئنان في الاعتقاد بأن هناك وراء تلك المظاهر مدرسة فلسفية جاهدة سبقت الكندي وأثرت فيه تعاليمها وتوجيهاتها وقد خفيت علينا معالمها وأقطابها، وإلا فما أستطيع أن أؤمن أن يغور رجل بمفرده إلى أعماق المباحث الفلسفية فيلتقط لآليها خالصة من مشوهات الأوهام في مثل عصره، ولا أنكر أن يكون له فضل صقلها وعرضها، وأصغر دليل

(١) الشيخ المظفر في محاضراته حول الفلسفة الإسلامية: ٧٥، ٧٦.

(٢) المظفر في محاضراته الفلسفية: ٧٥، ٧٦.

(٣) المصدر السابق.

على ما أقول ما عرضه في رسائله من المصطلحات الفلسفية المستقرة إلى اليوم مع تعريفاتها العميقة لاسيما رسالته في حدود الأشياء ورسومها وهذه المصطلحات لا يصح فيها إلا إذا كانت قد مرت عليها أطوار من التآرجح والتطور وبالأبحاث المستمرة حتى استقرت في عصره أو على يديه، ولا بد أن نفرض أن هناك مجامع علمية تعاونت على وضعها ولنفرض أن الكندي أحد أقطابها على أكثر تقدير. وهذه المدرسة الفلسفية هي التي ألجأت المسلمين إلى اصطناع الأبحاث الكلامية لغرض الدفاع عن الإسلام من عاديته فيما كانوا يظنون،^(١).

الفلسفة وعلم الكلام:

كثيراً ما يقع الخلط عند الدارسين بخصوص الحديث عن علم الكلام واعتباره جزءاً لا يتجزأ من الفلسفة أو بأنه أحد وجوهها، لكن حقيقة التأمل والدراسة تدفع اللبس والتوهم في بيان مدى العلاقة والارتباط بين مواضيع الدراسة الفلسفية وبحوث علم الكلام.

فمن جملة الأسباب استعانة المتكلمين في بداية نشأة البحث الكلامي بالبراهين الفلسفية وذلك لأن أساس الاختلاف بين المسلمين عقائدياً هو تأثيرهم الشديد بالأفكار الفلسفية التي سرت إليهم من هذه الفلسفة اليونانية، وجرى الشيعة على منهج السنة أحياناً في أسلوب التقليد المنهجي، ووقعوا في المناقشات الكلامية، واضطروا أن يدرسوا ما خلفه أهل السنة من نظريات كلامية على الرغم من نهي الأئمة عليهم السلام.

إلا أن الأئمة من آل البيت عليهم السلام قد كشفوا الكثير من المسائل الكلامية في كثير من أحاديثهم وخطبهم واحتجاجاتهم... من أمثال ما ورد عن الإمام علي عليه السلام مع معاوية والخوارج ومع الانقلابيين والمرتدين وإضرابهم من المشككين والحاقدين والمنافقين أيام السقيفة والشورى والجملة وصفين،^(٢).

وقد برزت في عهد الخلافة العلوية ظاهرة الآراء الفكرية والعقائدية والسياسية وظهور الفرق لأول مرة كالخوارج والأزارقة والحرورية، وما يروى أن ابن الكواء سأل الإمام علياً عليه السلام عن القدر فأجابه بقوله: بحر عميق لا تلجه فأمهل ثم سأل فقال: ستر الله فلا تكشفه نقول بظاهر ما نرى ثم يقضي الله تعالى بغيب ما يعلم^(٣).

(١) الشيخ المظفر، بحثه عن الكندي المنشور في -العدد الممتاز الصادر بمناسبة الذكرى الألفية للفيلسوف الكندي- من مجلة النجف العدد الثالث من السنة الخامسة رجب ١٣٨٢هـ / كانون الأول ١٩٦٢م: ٣.

(٢) الدكتور محمود المظفر، علم الكلام مقاله السابق الإشارة إليه: ٦٥.

(٣) أبو حيان التوحيدى، البصائر والدخائر ٢: ٩. وفيه (ابن الكواء هذا) قال عنه ابن دريد في كتاب الاشتقاق أنه كان خارجياً كثير المسابرة لعلي بن أبي طالب وكان يسأله تعتاً.

أما في شأن مخاض التأسيس لعلم الكلام نجد أن عيسى بن روضة الإمامي التابعي وحيد عصره في علم الكلام «وهو الذي فتق بابه وكشف نقابه، وله كتاب في الإمامة، وهناك رواية تشير إلى أن أبا هاشم عبد الله محمد بن الحنفية كان إمام علم الكلام بالاتفاق وله حق التقدم على عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ومن مشاهير المتكلمين الأوائل قيس بن سعد بن عبادة وسليم بن قيس وكميل بن زياد وخالد بن عيسى بن العاص وصعصعة بن صوحان العبدي وميثم التمار وأويس القرني ومحصلة كل ذلك، أن الأئمة عليهم السلام سبقوا الناس إلى إعطاء الفكرة النهائية لجميع الموضوعات التي بحثها علم الكلام والفلسفة من قبل أن يظهرها عند المسلمين»^(١).

ثم تبلورت أخيراً آراء ونظريات كلامية للشيعة الإمامية تجسدت في الأعمال الفكرية لأعلام الطائفة كالشيخ المفيد والسيد المرتضى، وكان الشيخ الطوسي أعظم مصلح في حينه لعلم الكلام عند الشيعة فقد صحح ما عند الشيعة من روايب غير صحيحة.

وهكذا تباعد علم الكلام عن الفلسفة كثيراً لأنه إنما يسعى لتحصيل البرهان على العقيدة المفروضة الصدق والتسليم، والفلسفة تسعى لنيل العقيدة من طريق البرهان فصاحب علم الكلام يعتقد فيبرهن، والفيلسوف يبرهن ليعتقد.

ومن أجل هذه الحقيقة قيل: أن علم الكلام لم ينجح في التوفيق بين الدين والفلسفة في وقت الحاجة إلى التوفيق لاسيما أن النظريات الفلسفية التي أخذت في موضع الاعتبار عند المتكلمين يوم نشأ علمهم لتقرير براهينهم قد تبدلت وتطورت وقد ظهر بعد حين خطأها لدى الباحثين وهذا هو السر في نهى أئمة أهل البيت عليهم السلام عن علم الكلام وتحذير الناس منه - ابتداءً - لاسيما أن الإمام الصادق عليه السلام الذي نشأ في عصره هذا العلم مع أنه كان هو كثيراً ما يحتاج المتكلمين بأسلوبهم^(٢).

(١) السيد حسن الصدر، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ٣٥٠. الشيخ عبد الله المامقاني، تنقيح المقال المجلد الثاني باب عيسى. السيد محسن الأمين. أعيان الشيعة، الجزء الأول، محاضرات الشيخ محمد رضا المظفر في الفلسفة، مقال الدكتور محمود المظفر، علم الكلام: ٦٦ الذي يتعرض فيه مختلف النظريات المطروحة في نشأة علم الكلام ثم يخلص إلى أن لكل من الأقوال نصيباً من الصحة لوفرتنا بين كل من النشوء، والنمو، والتكامل: ٧٧.

(٢) الشيخ المظفر في محاضراته الفلسفية: ٧٧-٨٠ ومقاله عن ابن سينا والعلاقة بين الدين والفلسفة وقد حاولنا التلخيص بينهما في عباراته مع الحفاظ على طابع الفكرة العامة لتأنيج البحث.

ومن هنا يتبين مستوى الوعي المبكر في المدرسة الإمامية^(١) بتوجيه أئمتهم وانتباههم إلى هذه المسألة بما لها من انعكاسات على سلامة العقيدة الإسلامية من خلال التفرقة بين علم الكلام والفلسفة في نواحي عديدة منها «أن الكلام وضعه المسلمون للدفاع عن الدين، والفلسفة ليس لها طابع ديني ولا تسلك مسلكاً معيناً أو تتبع ديناً بخصوصه، وعلم الكلام إنما نشأ للدفاع عن العقيدة الإسلامية عندما هاجمتها الفلسفة اليونانية واستخدموا الأساليب البرهانية التي تستخدمها الفلسفة... فعلم الكلام علم مستقل لا علاقة له بالفلسفة... وهدف الفلسفة معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية، وعلم الكلام هدفه تصحيح العقائد الإسلامية ثم بعد أن يستطرد المظفر بالتطرق إلى ما أنتجه التعارض في نشوء مذاهب ومدارس فكرية متناحرة نتج عنها ظهور فتن كثيرة سالت بها دماء ومصادرة للحريات، واختفت الفلسفة والفلاسفة وصارت تدرس سراً ونشأ في الشيعة كثير من الفلاسفة خفية... إلى أن يقول: إن من مفاخر الإسلام ومعاجزه أنه لم يكن منه شيء قطعي يناقض شيئاً قطعياً من الفلسفة، ولم يحتو القرآن على أي شكل من أشكال التناقض والتهافت على الرغم من مرور مئات السنين على صدوره قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢) ولكننا ندرس الفلسفة لرد عقيدتنا، والفلسفة أبعد ما تكون عن العقيدة الصافية الخالصة الصحيحة.

ولا يجب أن نعتقد بالله على طريقة الفلاسفة لأن الله لم يكلفنا بذلك بل العقيدة العامية تكفي عند الله، ولكنك لا تستطيع أن تفهم المصطلحات والبحوث الفلسفية دون أن يكون لك إلمام بالفلسفة، إن الذي لا عقيدة له ويريد أن يستند في عقيدته إلى مثل هذه الفلسفة فهو يضرب بجديد بارد،^(٣)

ولابد لمعرفة التفرقة بين علمي الفلسفة والكلام التعرف على حقيقة نشؤها وغايتها واتجاهاتها وعلى جهود الفلاسفة المسلمين في مسيرة التقييم والتقويم والإضافة ثم الصياغة مجدداً لمدرسة فلسفية قد سبقت، وتأسيس معالمها^(٤) وهو ما تستلزمه موضوعية البحث العلمي

(١) ومن أثر ذلك انتباه الأئمة (ع) إلى الفتنة التي أثارها المعتزلة بشأن خلق القرآن فقد ردوا بما يحول دون وقوع الشيعة في تلك الفتنة وبيان كون القرآن حادثاً ومخلوقاً في الوقت نفسه باستعمال تعابير مثل (الله وحده الخالق وما عده مخلوق، وما القرآن سوى كلام الله ويجب أن لا تطلق عليه الأسماء عواهنه) راجع الشيخ الصدوق كتاب التوحيد. مؤسسة النشر الإسلامي، طبعة قم: ٢٢٢ - ٢٢٥.

(٢) النساء ٤: ٨٢

(٣) الشيخ المظفر: محاضراته في الفلسفة الإسلامية المشار إليها سابقاً (بتصرف).

(٤) وهو ما توصل إليه شيخنا المظفر في بحثه القيم السابق الذكر عن الفيلسوف الكندي والإشادة بجهده الفلسفي.

الجاد في ضرورة دراسة كل منهما باستقلالية وحيادية من حيث النشأة والتطور والتكامل وحدود التداخل بينهما من حيث الموضوع، وآليات المنهج، وطبيعة الاستدلال والتأنيج والآثار، وفك الارتباط المزعوم بينهما رغم انفتاح المسلمين مبكراً على المباحث العقلية واعتبارها من الوسائط في إثبات وترسيخ العقيدة ورد دعاوى الزنادقة والمشككين.

ومن المهم إثبات حقيقة أن معرفة آراء الديانات السابقة وتطويرها في مجال فكري إسلامي يستتبع وجود مصطلحات خاصة امتدت إلى علم الكلام الإسلامي وصارت جزءاً من تكوينه، ولا يستغرب ورود ألفاظ اصطلاحية أخرى كما هو الحال في كتاب نهج البلاغة.

وقد زخر عصر الأئمة المعصومين - بسبب تبني السلطات الحاكمة لوعاظ السلاطين وشيوع الأفكار الجديدة على المسلمين نتيجة الترجمة - بالعديد من الحوارات في الجانب العقائدي وإثارة المغالطات والشبهات من المشككين والزنادقة وطلاب الجاه والفتنة لكن أهل البيت عليهم السلام كانوا بالمرصاد والتصدي لهذه الموجات الضالة بأنفسهم وبتريتهم وتوجيه تلامذتهم لمجابهة هذه التيارات وقمعها بالنقاش الموضوعي وإيراد الحجج الدامغة.

وإذا بحثنا الموضوع على مستوى العلوم العقلية والحكمة والفلسفة ومجالات التأسيس والتطوير وتنمية الأفكار والمناهج فنجد أن ما قدمه علماء الشيعة كان يبنياً وله أثر في هذا السبيل وإغنائه بالمساهمة الفكرية فكرة وتالياً وتراثاً بما تقف على مصداقته في الدراسة الموضوعية في آفاق تاريخ الدراسات الفلسفية عند الشيعة الإمامية ولمدرسة الحوزة النجفية على وجه الخصوص.

ومن المعلوم أن الجهد الفكري للإنسان لا يمثله زمان أو مكان معين بل هو ثمرة مراحل وأدوار اجتمعت وتلاقت في جذور التكوين كما أنها تضاربت وتقاطعت في أحيان كثيرة حتى استخلصت النتائج فكان لكل جيل دور يمهّد لآخر بعده ومن حكمة الرب وجود التباين الذي يمثّل أحد

ملامح الإبداع في سر الخلقية لتضافر مع بعضها البعض من أجل رفد الإنسانية في مجالها المعرفي.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى موضوع تجاهل ما للفكر الشيعي من أهمية دوره التأسيسي في مجال العلم والفكر والبحث الفلسفي حيث ((أن جانب ما يتعلق بفلاسفة الشيعة محاط بكثير من الغموض والإبهام وهناك مؤلفات أهملت قرناً في ظل ظروف صعبة كان الرعب والتشريد يطال الشيعة في كل درب واختفاء مفكريهم وضياح آثارهم ومؤلفاتهم وتراكم الأساطير من حولهم في الوقت الذي نادراً ما تجد عالماً شيعياً فقهياً وليس له سهم وافر من علوم الفلسفة والكلام والرياضيات والفلك))^(١).

(١) محمّد جواد مغنبة، مقدمة كتاب فلاسفة الشيعة للشيخ عبد الله نعمة.

العرفان والتّصوف:

يرى البعض حين يحاول أن يفسّر الدّين باعتباره في الأساس يمثل ظاهرة طقوس وتقاليد خاصة يؤديها الفرد فيجد من نفسه بعد مدة من ممارستها وهو يعيش هالة من التقديس والإجلال فيسمى حينئذ متديناً أو مقدساً كما يحلو في التّعبير الذي تعار عليه الناس. وإذا أمعنا النّظر فلا ضير في أن ينصرف منهوهم التّدين أساساً لتوصيف تلك الحالة التي تصطبغ شخصية المسلم الذي يؤدي فروضه الدّينية بكيفية من الأداء الدّقيق الملتزم في تفاصيله لكل ما يمت بالأسس التي قررها الشّرع من حيث طبيعة العبادات ورسومها وصورها وأوقاتها، أو ما يصح التّعبير عنه بعمومية الصّياغة الشّامنة للعبادة من حيث الكم أو النوع، أو الزّمان، أو المكان فنظام العبادات في الشّريعة الإسلاميّة يمثل أحد أوجهها الثّابتة التي لا تتأثر بطريقة الحياة العامّة وظروف التّطور المدني في حياة الإنسان إلا بقدر يسير.

ولكن الحق الذي ينبغي تبينه من خلال نافذة العبادات في نفس المؤمن هو ذلك الأثر التّربوي الذي يعبر عن مدلول كلمة الدّين وآفاق ذلك في سلوك الإنسان.

وهنا لا بد من تقرير أن الحديث عن الفلّسفة وماهيتها واتجاهاتها يعكس صوراً للمقاربة أو الافتراق وانعكاسات ذلك على مستوى ظواهر روحية لها بصماتها الواضحة في مجمل حركة العلوم العقليّة بما تضيفه من معالم ورؤى وأفكار تؤسس المنابع المعنوية لمواطن القرب الرّباني، واستلهاً المعرفة الحقّة وفي صدد بحثنا لأبعاد الدّرس الفلّسفي في مدرسة النّجف نكتشف جانباً مهماً من العلاقة بين ظهور دراسات الفلّسفة ونظائرها وأثرها بما يتعلق ببناء المدرسة العرفانية في النّجف المعروفة بخصائصها ومميزاتها كما سيّضح لاحقاً.

ولا مناص من معرفة أن العرفان يعدّ في سياق العلوم الإسلاميّة التي نمت وترعرعت في إطار المعرفة والثّقافة العقليّة في الإسلام^(١)، ولا يمتلك الباحثون جواباً دقيقاً في تحديد تاريخ

(١) للعرفان ناحيان: عملية ونظرية، فالعملية عبارة عن علاقة الإنسان وواجباته تجاه نفسه والكون وخالفه فيكون العرفان كالأخلاق إلا أن بينهما فوارق تذكر في مظاهرها، ويطلق على هذا العرفان بـ (علم السّر والسلوك) ولا بد لبلوغه من مراحل بإشراف إنسان سلك هذا الطّريق للوصول إلى التّوحيد.

أما العرفان النّظري فهو الذي يتعرض إلى تحليل الوجود ويبحث بشأن الخالق والكون والإنسان فهو يشابه الفلّسفة الإلهية التي تعمل على دراسة الوجود والفارق بينهما أن الفلّسفة تعتمد في استدلالاتها على المبادئ والأصول العقليّة في حين أن العرفان يجعل من المكاشفات مادة رئيسة في استدلالاته ثم يوضحها ويبررها عقلاً، وهناك آراء واسعة مطروحة بين العرفاء والمحدّثين والفقهاء تتعلق بمسألة التّضاد بين العرفان والإسلام أو بخصوص الشّريعة والطّريقة والحقيقة ولكن نتيجة الدّراسة الحيادية المتأنيّة توحى بحسن التّوايا والإخلاص للمبادئ الإسلاميّة في توجهات العرفاء. انظر للتفصيل كتاب الشّيخ مرتضى المطهري، مدخل في العلوم الإسلاميّة ٣، ٥٩ - ١٠٧.

إطلاق هذه التسمية سوى الإشارة إلى شيوعها في القرن الثالث الهجري^(١) ومن المهم التنويه إلى أن العرفان يغطي الساحة الإسلامية على تنوع انتماءاتها العقيدية والمذهبية فهو تيار فكري يمتاز بالأصالة^(٢) والعمق ويصطف في طبيعته طبقات من العلماء وأئمة الدين وطلاب الحقيقة، وإن اختلفوا بينهم في مسائل اختلفت بها بعضهم دون البعض الآخر، أو تباينت فيهم مذاهب الباحثين من المسلمين وغيرهم، فهم قد جمعتهم وحدة الهدف الذي يسمو للارتقاء في مدارج العشق الإلهي، وتسبب مرقاة الإخلاص في التوحيد عن طريق طي مراحل السير والسلوك وتزكية النفس وتنقيتها من الأدران التي تحجبها عن أنوار الملكوت والابتعاد عن الزهد والعبادة الفارغة وإن تعددت الطرق، وتنوعت الوسائل.

والمهم معرفته أن أصول العرفان الحقيقية ما دلت عليه الآيات القرآنية والسنة النبوية الشريفة وأشارت إلى مبانيه سنة الأئمة المعصومين في أحاديثهم والمروي من أدعيتهم وسيرتهم وهذه المصادر مما ينبغي اتخاذها أسساً سليمة المسلك في الوصول، ومنبعاً للإلهام الروحي وتربية المؤمنين على طريق الله الذي أشار إليه الحديث القدسي: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها».

وفي سيرة الرسول الأكرم ﷺ المثل الأعلى للسالكين في عبادته ومناسكه وانصهاره في الذات الإلهية مما يستلهمه العارفون ويرتشف من منهله القاصدون.

وأما الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فقد اجمع طلاب العرفان على الاقتداء به، واتخذوه القطب الأكبر في السير والسلوك حيث ينهون إليه سلسلتهم الذهبية التي تصلهم برسول الله ﷺ بإجماع الطوائف الإسلامية مستندين إلى ما أفاده عليه السلام في خطبه^(٣) وأقواله وما أثر عن سلوكه

(١) مما ظهر من كلمات السري القفطي - ٨٢٤٣ - انظر تذكرة الأولياء للشيخ عطار كما في المطهري، المصدر السابق: ٧٨ حيث أشار بهذا الصدد إلى أن أبا نصر السراج الطوسي ذكر في كتاب اللع: ٤٢٧ كلاماً لسفيان الثوري بلوح منه أن هذه التسمية قد ظهرت في حوالي النصف الأول من القرن الثاني.

(٢) هناك من يذهب في التشكيك بهذه الأصالة الإسلامية ومنهم بعض المستشرقين بإدعاء التأثير برهبانية النصارى أو اليهود أو بسبب ردود فعل ضد الإسلام والعرب أو إنه نتاج فلسفة الأفلاطونيين المحدثين أو الغنوصيين أو نشوؤه من الأفكار البوذية ويقدر ما أشيع بهذه الدعاوى فإن العرفان الإسلامي أشاد هيكله الإسلام.

(٣) من ذلك خطبه في وصف السالك إلى الله تعالى، قوله: (قد أحيا عقله، وأمات نفسه، حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق فأبان له الطريق، وسلك به السبل، وتدافعت الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة. وثبت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه) الخطبة ٢١٧ من النهج. أو ما قاله لكميل بن زياد بشأن أولياء الحق: (هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلوا ما استوعره المتوفون. وانوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الناس بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى) الخطبة ١٤٧ من نهج البلاغة.

العبادي الذي أبانه في التعبير عن الإخلاص وحقيقة العبادة في كلمته المعروفة: (إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك).

وقد عرف تاريخ التشيع عبر أدواره معالم مشرقة من العرفاء الذين تميزوا عن غيرهم (فقد كانوا في واقعهم من أهل السير والسلوك والعرفان وهؤلاء هم العرفاء الحقيقيون دون الجموع التي اخترعت لنفسها مختلف الآداب والسلوكيات وأحدثت من البدع ما أحدثت)^(١).

وإذا كان تاريخ التصوف قد بدء مبكراً في مدينة الكوفة فإنما يوحى ذلك بأنه يمثل لونا من الأجواء الروحية، وعرف بما له من صلة وثقى بالمذهب العقلي، ومن خصوصياته اتجاه المتصوفة للانتماء إلى جهة المناجاة والانشداد بين الوجد والجذب^(٢) مما يوحى بالمقارنة بينه وبين العرفان من بعض الوجوه إلا أن هذه العلاقة غير ممتدة بينهما على مفترق من الطرق وفق حيثيات متعددة عند دراسة الأسس والمباني والآليات لكلا الظاهرتين خاصة إذا أحكمنا النظرة إلى ما بلغت مسيرة التصوف من الشطحات والشذوذ التي بلغت حد المروق عن الدين والكفر والشرك استناداً إلى دعوى الاتحاد والحلول^(٣)، وما آل إليه حال بعض المتصوفة بابتعادهم عن الإيمان الحقيقي والمعاني الروحية للزهد والعزلة المعبرة عن حسن الاعتقاد بالقرب والصلة بالإضافة إلى خصومهم التقليديّة وعداوتهم للمبادئ الإسلامية والتشيع على الأخص.

أما ما سجله تاريخ النجف فقد كانت -وستبقى- كعبة القصاد ومهوى الصالحين الإبدال نظراً لتميزها بالثرى المقدس للإمام علي عليه السلام وما فيه من شأن ومهابة قدسية في نفوس المؤمنين الذين بذلوا مهجتهم لتحصيل الزلفى والرجاء بالقرب لساحة القدس.

- (١) المطهري، المصدر السابق: ٧٠ وانظر ما بعده من البحث الممنوع في تفصيل الحديث واستعراضه حول الموضوع.
- (٢) لابتة من بيان أن الصوفية على الإجمال ترى أن المعرفة الكاملة لا تتم إلا بالاتصال روحياً بالله والبقاء معه وهذا الاتصال هو غاية النفس البشرية ولا يحصل إلا بانصراف النفس عن الدنيا وقهرها بسلسلة من الأعمال والعبادات وقد بدأت منذ القرن الأول وتألفت منها جماعات كبرى ولكل منها طقوس ومراسيم وأذكار وشيخ مرشد ونظرة خاصة في مسائل الاعتقادات وتفسير ظواهر الكون ومن المهم التمييز فيما بينهم بحسب مبانيهم واتجاهاتهم التي بالغ البعض منهم فيها فجانبوا الحق وضلوا فخرجوا عن الصراط.
- (٣) بشير الشيخ صفى الدين الطريحي - من أعلام القرن الحادي عشر الهجري - إلى أمثال هؤلاء بقوله: واعلم أن المتصوفة في زماننا هذا قد (زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّوْهُمُ عَنِ السَّبِيلِ) (النمل ٢٧: ٢٤، العنكبوت ٢٩: ٣٨) فاعتقدوا أموراً متحيلة من الحلول، والاتحاد. كأن يرقوا إلى السماوات، ويشاهدوا المغيبات، ويخاطبوا الأنبياء، والأئمة بالمشافهات وهم مع ذلك يزعمون أنهم متظمون في سلك الشيعة وغير خارجين عن سمت الشريعة لعنهم الله بما يفترون وقاتلهم الله أتى يؤفكون (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (المائدة ٥: ٤٤) وقد تكثرت الروايات عن الأئمة الهداة (ع) بالإنكار عليهم البراءة من دينهم. مطارح النظر في شرح الباب الحادي عشر: ١٣٥، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٧، ١٤٨، مطبعة الآداب بالنجف ١٩٥٨.

ويتباهى المؤمنون فيما بينهم بزيارة المرقد العلوي فكيف إذا حلوا قاطنين بجواره الشريف للتزود من بهائه، وارتشاف مناهل العرفان الحقيقي بقربه متمثلين الطريقة المثلى التي خطها بعلمه وعمله وعبادته التي كانت لها الحظوة عند العارفين الذين وقفوا عند أعتابه متوسلين إلى الله تعالى أن يمنحهم منه القبول والرضا.

وقد وجد العارفون في المكوث والمجاورة والسكنى بالنجف معان روحانية تسمو بها ذات الإنسان في درجات عالية من الوله والنسك والذكر وكمال التعبد بقدر ما يتوصلون إليه من فيوضات وبركة باب مدينة العلم والحكمة الإلهية.

ومن أجل ذلك فقد اهتم رواد المعرفة والسلوك بالورود وإغناء مسيرتهم في التهذيب والمراقبة بالمجاورة منذ القدم، كما تصدى أعلام الحوزة النجفية بإقرار مناهج للسلوك العرفاني والتهجد وتأليف مصنفات في الدروس الأخلاقية بمستوى ما كانت تمضي به سير العلم في دراسات الشريعة فقد كان للعرفاء سواء من علماء الحوزة أو من خارجها سعياً جاداً ومواظبة حثيثة للمواصلة والتهذيب علماً وعملاً بحيث يتمكن من التسليم بوجود مدرسة عرفانية في النجف لها خصائصها وسماتها وتراثها^(١) وهي في جملة ظروفها متواصلة الحلقات يفضي السلف منها إلى الخلف وتنتظم بحلقات مخصوصة بين طلابها وأساتيدها مع التأكيد على أن مسارها الموحد في بلوغ الغاية يتباين من حيث التجربة والدرجات^(٢).

ومن المعلوم أن المدرسة العرفانية امتدت عبر مراحل تأسيس النجف منذ دفن الإمام علي عليه السلام حتى العصور المتأخرة وتميزت كل مرحلة برجالها الذين أغدقوا بمعارفهم الروحانية وتربية جيلهم على منهج السير والسلوك على هذا المنهج الذي لا يختص بشكل معين إلا بمن طلبه وسعى إليه وجاهد من أجل الوصول إلى مراتب سامية فيه ولذلك نجد أن جل أعلام الدين ممن جاور النجف يتمتع بخاصية التأثير بروحانية البركات للمجاورة العلوية ولكنهم يفترون من حيث الدرجات والجاذبية والتواصل والدليل على ذلك اهتمامهم بتخصيص كتب لكل منهم في الأذكار والأدعية والأعمال، وتوجههم للعبة العلوية المباركة بقصد الاستزادة من نفعاتها القدسية والتوسل إلى الله بإجابة الدعوات، وانعقاد مجالس الذكر والتربية السلوكية لمحاضرات التهذيب والأخلاق ومن هذه

(١) لا يتسع بحثنا للإفاضة والتفصيل في هذا المجال إلا بقدر الإشارة العابرة من أجل أن نصل إلى ما يهمنا عرضه بموازاة عصر الشيخ المظفر.

(٢) تكاد حركة العرفاء غير واضحة بل سرية لا يفهمها ولا يتعرف عليها إلا الخواص من الناس بسبب ما تكتنزه من روحية الزهد والابتعاد عن الظهور للعيان وقد لا تعرف منزلة العارف منهم إلا بعد وفاته وشيوع ذكره بأخباره ومريديه.

الحلقات المنعقدة انطلقت سمات نظام خاص سلكه العارفون في سلسلة ذهبية تشابه إلى حد كبير سلسلة رواية الحديث واختص الطلاب بأساتذتهم وأتقن الأساتذة دور المراقبة وتوجيه السير ونتج عن ذلك ما يمكن أن نعبر عنه بطبقات العرفاء في هذه المدينة التي احتضنت على ربها الطاهر كوكبة من العلماء المقدسين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر المقدس الأردبيلي وجمال العارفين السيد علي بن طاووس والشيخ الطوسي والسيد عبد الرحمن القدسي والسيد حيدر الأملي حتى «أن النصف الثاني من القرن الثامن شهد ازدهاراً مجدداً في مدرسة النجف أتيح لها معه هذه المرة أن تساهم بفعالية مشهودة في تأسيس الحكمة العرفانية عند الإمامية على يد السيد حيدر الأملي وربما كان عبد الرحمن القدسي أستاذ الأملي صاحب الحظ الأوفر في ذلك... وتعتبر محاولة الأملي أول محاولة لترسيخ المنحى التأويلي في التراث الإمامي وقد مهد هذا المنحى لولادة اتجاه متميز بعد أقل من قرنين ثم تعاضم دور هذا الاتجاه لدى الشيعة الإمامية بمرور الزمان ولم تجهضه الردود المتنوعة التي أطلقها المحدثون والفقهاء والمتكلمون من علماء الإمامية الذين أصر الكثير منهم على شجب هذا المنهج في تفسير القرآن وفهم المأثور عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم...»^(١).

وقد عرف سيد العرفاء السيد محمد مهدي بحر العلوم برسائته المنسوبة إليه (السير والسلوك) ثم من بعده درس العارف السيد علي الشوشتری الذي كان الشيخ الأنصاري يحث تلامذته على حضور دروسه الأخلاقية والعرفانية ويصطحبهم بنفسه «وفي الوقت نفسه كان السيد علي الشوشتری أستاذاً للشيخ الأنصاري في الأخلاق وهذه من العلاقات النادرة إذ كان كل منهما أستاذاً وتلميذاً للآخر في آن واحد... وقد ربت مدرسة السيد الشوشتری الكثيرين من العرفاء العظام وهؤلاء ربوا بدورهم عدداً آخر من طلاب الحق تعالى وأبرز خريجي مدرسة السيد الشوشتری هو الفقيه حسين قلي الهمداني الذي تفرغ للقيام بهذه المهمة التعليمية الشمولية والتربوية السلوكية ووسع نطاق مدرسة أستاذه الشوشتری وبلورتها في صورة جامعة بين الفقه والأصول والأخلاق والسلوك والعرفان وربى كوكبة من العلماء الربانيين فكانوا فقهاء مجتهدين وعرفاء كاملين واصلوا منهجه وأنشؤوا حوزات تربوية على غرار مدرسة أستاذهم نظير ما فعله كبار العارفين السيد أحمد الكربلائي والسيد مرتضى الكشميري والميرزا جواد الملكي التبريزي والمولى محمد البهاري والسيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ باقر القاموسي والسيد جمال الدين الأفغاني والسيد مهدي الحكيم والسيد علي القاضي^(٢) وغيرهم.

(١) د. الرفاعي عبد الجبار، تطور الدرس الفلسفي في النجف: ٣٠ موسوعة النجف للدجيلي ج ٨

(٢) صدرت في الآونة الأخيرة كتب ومؤلفات عن الكثير ممن ذكرناهم. انظر عرفان محمود، الحوزات الأخلاقية

والعرفانية في النجف: ١٥٨-١٩٠، موسوعة النجف للدجيلي ج ٨

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن طوائفاً من أصحاب الطّرق يتعشقون الرّحاب الرّوحاني الذي يتجلى في الحرم العلوي فقد كانوا منذ القديم يقصدونه وينتظم جمعهم بأفقه المضمخ بعطر الولاء والمحبة.

وأما إذا درسنا اتجاهات الحكمة الإلهية عند الشيعة في مسار تطورها نعلم أنها تظهر في الشّروحات العرفانية حيث يبرز دور صدر المتألّهين لأنّ «العقيدة التي يصوغها على هامش نصوص الأئمة تمثل كل معرفة حقيقية باعتبارها كشفاً أو ظهوراً وذلك أنّ القلب (هذه اللطيفة النورانية ومرتكز الذكاء) عنده ملكة بجميع الحقائق وكل ما هو قابل للمعرفة غير أنّ المعارف التي تتجلى له من حجب الغيب يمكن أن يكون مصدرها العلم الشرعي أو معطيات الشريعة كما يمكن أن تكون علماً عقلياً وبالتالي آتية مباشرة من معطي المعطيات»^(١).

ولما تحمله النجف من أهمية روحانية فقد قصدتها طلاب المعرفة الروحية من المتصوفة^(٢) وأصحاب الطّرق وقاموا بتأدية طقوسهم بالقرب من العتبة الحيدرية.

حيث أنّ «الشيخ محمد الرضوي الملقب بكتاس ١٢١٠-١٢٧٠هـ وهو من تلاميذ الشيخ أحمد اليسوي^(٣) الذي دفعه للذهاب إلى النجف وعندها هاجر من خراسان إلى العراق وأقام مدة في النجف الأشرف مجاوراً مرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام واعتكف في إحدى حجر صحن مرقد الشريف وبعد توسعة الصحن الغروي عمر موضع معتكف بكتاش هذا تعميراً جيداً فخماً وجعلته البكتاشية^(٤) من الأتراك تكية أي مقراً لهم في النجف الأشرف وفي سنة ١٢٩٦هـ كنا ندخل إلى التكية هذه بدعوة من علماء الأتراك وقضاتهم ومرشديهم فنشاهد فيها شعارات الدروشة كالفؤوس الخاصة والكشاكيل الثمينة معلقة في الجدار القبلي من التكية

(١) هذه المقالة صدى لما ذهب إليه الملا صدرا في شرحه على أصول الكافي. راجع هنري كوبان، تاريخ الفلسفة الإسلامية بمراجعة وتقديم الإمام موسى الصدر: ١١٨.

(٢) لا بد من التّويه إلى أنّ الصلّة بين التّشيع والتّصوف منفية تماماً لأنّ التّصوف مدرسة متفلة عالمية تربت إلى الشيعة بعدما غزت العالم الإسلامي كله ولأنّ التّصوف يعدّ مفتاحاً لانفتاح جميع الأديان والمذاهب بعضها على بعض ولا يختص بالتّشيع تبعاً ولا سنداَ مقدمة السيد موسى الصدر لكتاب هنري كوبان في تاريخ الفلسفة: ٣٦.

(٣) الشّاعر المتصوف العلوي الشيخ أحمد اليسوي من شعراء القرن الثاني الميلادي له ديوان الحكمة ومما يقول فيه أنّ العاشق الذي يعرف شروط الشريعة يعرف أيضاً أيها الأجيّة معنى الطريقة وأنّ يؤدي شعار الطريقة يخوض في بحر الحقيقة لأنّ العلوية تؤمن بأنّ الطريقة قرين الحقيقة والشريعة.

(٤) الطريقة العلوية البكتاشية التي تناغمت مع الطريقة المولوية الصّوفية لمؤسّسها جلال الدين الرّومي مع طرق أخرى ومن الأمور الجديرة بالبحث أنّ العلوية انتشرت في أوساط الشّعراء المتصوفة الذين تغنوا بالعشق الإلهي وبالحق والعدالة وحب أهل البيت.

وللحاج بككاش كتاب عربي اسمه (مقالات) يبدو منه إتباعه لعقيدة الإثنا عشرية^(١). وما يهمننا هنا أن العاشقون للولاية من أهل الطُّرق والأذكار الذين قصدوا مدينة النَجف وجاوروا أو مروا فيها كان لهم صدى مؤثر على طابع الحياة الروحية والأدبية والنفسية^(٢) لما كانوا يقدمونه من طقوس وتقاليد تقرأ إما في مجالسهم المخصصة أو أمام العامة وقد أدركنا في عصرنا من هذه الطرائف ما كان يمارسه البعض من أهل الذِّكر حين يدخل النَجف منطلقاً بمسيره عبر السُّوق الكبير حتَّى العتبة في زي خاص ويديه كشكول أو مبخرة وهو يردد أشعاراً في حب الإمام علي وأهل بيته وكان منهم بقية ومرشدتهم الحاج مطهر إلى قبل عقدين من الزمان يدعون بالترايبية يسكنون في تكية تقع مقابل مسجد الكوفة.

الفلسفة والفنون الأدبية:

لا شك أن أسلوب الكتابة الفلسفية يمتاز بالرِّصانة والدِّقة التي تستعصي على من يحاول فهم مدلولات الألفاظ والكلمات المستعملة في التعبير عن الفكرة التي يسعى إليها المتخصصون بطرح الأفكار والمسائل الفلسفية.

ولذا نجد أن النخبة من أهل الفن هم الرّواد الحقيقيون الذين يردون هذه الموارد دون غيرهم ويأمنون بحل ألغازها ومعرفة مضامينها ومن المصاديق ما أفاده الشيخ المظفر في دراسته عن الملا صدراً بقوله: «والمعهد في كتب الفلسفة الغموض والرّمز والتّعقيد... ومن تعاليم الفلاسفة أن يكتموا آراءهم إلّا على فئة خاصة من تلاميذهم يفتحون لهم رموزهم حيث يجدون منهم استعداداً لفهم مقاصدهم والاستنارة بهم».

وفي هذا الصّدّد نكتشف أهمية ما حققه الأذكياء من الفكر والأدب الذين قدّموا مفاهيم الفلسفة وأسرارها العميقة على مائدة الفنون الأدبية بألوان متعددة ألفها المتأدبون والمتعلمون من طلاب المعرفة بعيداً عن اللّغة الصّعبة التي قررها أساطين الفلسفة فيما كان له التأثير على المسلمين من جهة، وعلى الفلسفة والفلاسفة وذلك «لما هاجمت الفلسفة أفكار المسلمين وأوجبت اضطرابهم وتبليبلهم وقد كان الناس في السابق يقدّسون الفلسفة ويتلقون أفكارها كوحى منزل نشأ من ذلك حالة من الازدواجية تدعو إلى التوفيق - مهما كلف الأمر - بين ما جاء به الإسلام وما جاءت به الفلسفة...»^(٣).

(١) حرز الدّين الشّيخ محمّد، مرآة المعارف ١: ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) إن هذه الحالة بما لها من آثار ما يشابهها في مدن العتبات وحواضر العالم الإسلامي عامة كالحرمين الشّريفيين بمكة والمدينة والقدس ومدن القاهرة وفاس والقيروان وغيرها.

(٣) المظفر محمّد رضا، الفلسفة الإسلامية: ٧٧.

وأسلوب تعاطي الفنون الأدبية في هذا المضمار قديم جداً في تاريخ الإنسانية وتوصيلها الرؤى الفلسفية على هذا النسق بل «إن استحضار عالم الخيال أو الرمز لعرض الأفكار الفلسفية أو للتعبير عنها في قالب فني من الأساليب التي عهدتها الفلسفة منذ نشأتها وفي ذلك أمثلة لا تحصى فيها على سبيل الذكر استخدام أفلاطون للترهات الإغريقية وللأساطير إطاراً أو على سبيل الاستشهاد في محاورته طيماوس وكريتياس من الشعر وتشوانغ تزو من القصص قوالب لعرض الفلسفة الطاوية»^(١).

وعلى مستوى التراث العربي الإسلامي نجد ابن سينا في قصيدته العينية، وأبو العلاء المعري في رسالة الغفران، وفيما ابتكره الطبيب الفيلسوف الأندلسي أبو بكر محمد بن طفيل في قصة حي بن يقظان ما يمثل القمة والانفراد في الابتكار والتأسيس لبناء القصص الفلسفية الأوربية ابتداءً من القرن الثامن عشر حتى اليوم من فولتير وروسو وسارتر وكامو وغيرهم مما يجسد القيم الجمالية للفن الأصيل براعتها في المعطى الفلسفي.

ومن هنا تلمس ما اصطفت به ألوان الثقافة الفلسفية في ذاكرة النجف العلمية وما يعينا الإشادة به لشيخنا المظفر في (أحلام يقظته) الرائعة وما امتاز به من حسن الديباجة التي أضفاها على أسلوبه الأخاذ الذي أخضع به إبهام الألغاز لفلسفة صدر المثاليين إلى الإيضاح وحل الرموز بقدرة حكيم ماهر يفوص في اللجج فيختار اللاكئ اليتيمة ويصوغ منها خواتيم المعرفة النادرة وشأن القارئ الكريم ما يجول به فكره من اكتشاف الفكرة الصائبة، واقتناص المتابعة النافعة.

أما إذا تفحصنا التاريخ النجفي في غابره وحاضره فحسبك من هذه المدينة العلمية اهتمام أعلامها وما أفاضوه من التأليف والتصنيف في مجالات اختصاصاتهم بالعلوم الشرعية والعقلية حيث دأبوا على كتابة الحواشي والشروح والتعليقات على مصنفات لكبار المجتهدين والحكماء ظهرت بين حين لآخر ومنها ما تحولت إلى منظومات شعرية.

ومما يرسم صورة من الإبداع والتميز ظهور الشعر التعليمي في النجف مبكراً بنظم متون العلوم والفنون والآداب في الأراجيز^(٢) التي أصبح ينظمها العلماء من الفقهاء والأصوليين

(١) أنور أبو بندورة، الأبعاد الفلسفية: ١-٢.

(٢) الأراجيز ويسمى قائلها: راجزاً، واحدها أرجوزة: وهي شعر سهل في السجع ويقع في النفس لخفته منظوم على قافية بحر الرجز وهو نوع من أنواع الشعر يكون كل مصراع منه مفرداً، والأرجوزة غير القصيدة لأن القصيدة يكون البيت فيها مكوناً من مصراعين والشعر العربي كله إما رجز وإما قصيد. وإنما سمي الرجز رجزاً لأنه تسوالى فيه حركة وسكون ثم حركة وسكون. وهو يشبه في هذا بالرجز في رجل الناقة ورعدتها وهو أن تتحرك وتكون ثم تتحرك وتكون ويقال لها جيتذ رجزاء. وزنه التام (متفعلن) ست مرات. وقد يستعمل هذا البحر بشكل غير كامل. الهيب الدكتور أحمد فوزي، بحر الرجز والأراجيز اتلاف واختلاف، مجلة الموقف الأدبي دمشق ٢٠٠٥، ٤١٣م. ومما ذكره الرواة أن الشعر أصلاً كان رجزاً حتى كان المهلهل وامرؤ القيس فحولاه إلى قصيدة.

وأساتذة الفلسفة والحكمة الإلهية إضافة للعلوم العربية والمنظومات الفلسفية لتبسيط المعرفة بتلك العلوم، وتيسير الفهم والمتابعة المنهجية للطلاب. وقد تفضى استعمال هذا اللون عند أدباء النجف فقد نظموا فيه عشرات المنظومات - إن لم أقل المئات - التي تكفلت علم النحو والصرف والمنطق والعروض والأصول والفقه والفلسفة والهيئة والحساب والرجال كما قاموا بوصف علم الشطرنج بصورة تفهم المتذوق كيفية استعماله بحفظه الرّجز^(١).

ومن المفيد معرفة أن مدرسة النجف الفلسفية تبنت هذا اللون من الأدب في تبسيط معالم البحث الفلسفي لذوقيه وطلابه فصدرت عن المعينين بالفلسفة أراجيز غطت مساحة كبيرة مما يدور مدار الفلسفة ويختص في دروسها منها أراجيز في علم المنطق، أو العقيدة والمباحث الكلامية، أو الردود والمعارضات للقوائد والأراجيز، أو منظومات لعلم اللاهوت أو لمتن معين، أو دفع الشبهات وتفنيذ المطاعن، أو ما يجري مجرى الشعر التعليمي لسهولة حفظه من الطلاب، أو لفتات تدور مدار الحكمة والفلسفة بكلمات يصطلح عليها عند الفلاسفة أو رسائل متبادلة بين اثنين من الأعلام أو الأدباء، أو ما يعبر عن إيمان بروحية عالية وهيام عرفاني^(٢).

وقد عنى شيخنا المظفر بهذا اللون الفني من الأدب فيما سطره بدراسته عن أستاذه الشيخ محمد حسين الكمباني وفي استعراضه للأراجيز التي نظمها شيخه قائلاً: «وتظهر آراؤه وتحقيقاته الفلسفية واصطلاحات الفلسفة على جميع آثاره وأبحاثه حتى في أرجوزته في مدح النبي المختار وآله الأطهار عليهم جميعاً الصلاة والسلام بل أرجوزته هذه قطعة فلسفية رائعة أفرغها في ثوب من الأدب العالي قد أوضحت رأي الفلاسفة المؤمنين في محمد وآل بيته نور الأنوار وعلل الكائنات على ما أشارت إليه الآيات القرآنية وصرحت به الأحاديث الصحيحة.

وأغلى آثاره الفلسفية وأعلاها أرجوزته في الحكمة والمعقول (تحفة الحكيم) التي هي آية من آيات الفن مع أسلوبها العالي السهل الممتع جمعت أصول هذا الفن وطرائف هذا العلم بتحقيق كشف النقاب عن أسرار وأزاح الستار عن شبهاته وإن دلت على شيء فإنما تدل على أن ناظمها من أعظم فلاسفة الإسلام الذين لا يسمح بمثلهم الزمن إلا في فترات متباعدة أمثال ابن سينا والخواجه نصير الدين الطوسي وصدر المتألهين لولا أن شيخنا غلب عليه الفقه والأصول وانقطع إليهما عن الظهور بالفلسفة... وإليك بعض أبيات أرجوزته هذه الشاهدة

(١) الخاقاني علي، شعراء الغري ١: ٢٥.

(٢) انظر ما دوته المؤرخون في تاريخ النجف كما في الذريعة إلى تصانيف وطبقات أعلام الشيعة للمحقق الطهراني، وشعراء الغري للواقاني، وماضي النجف وحاضرها للشيخ جعفر محبوب، ومعجم رجال الفكر والأدب للشيخ محمد هادي الأميني وغير ذلك.

على سلامة ذوقه وطول باعه في الأدب وقدرته على التصرف في الألفاظ العربية السهلة الواضحة في أدق المعاني العلمية. فقد قال في أصالة الوجود:

يختص بالوجود طرد العدم
وليست العلة للمعلول
وهو مدار الوحدة المعتبره
ومركز التوحيد ذاتاً وصفه
وقال في مبحث تعريف الوجود:

الحُد كالرَّسْم على التَّحْقِيق
ولا يقال في جواب (الشارحه)
يوصف بالأسمى والحقيقي
إلا حدوداً ورسوماً شارحه

وقد كشف في هذين البيتين عن حقيقة الشارحة تبيهاً على الغلطة التي عقلت في أذهان أهل العلم عن مرادفة التعريف اللفظي لشرح الاسم ومطلب ما الشارحة وإن كان قد يراد من شرح الاسم التعريف اللفظي أحياناً ومنشأ هذا الاشتباه ما ذكره الحكيم الفيلسوف السبزواري في شرح منظومته من ترادف التعريف اللفظي ومطلب ما الشارحة... فأوقع الباحثين في هذا الاشتباه حتى كشفه شيخنا في هذين البيتين الرصينين وأوضحه في شرحه (الكفاية)^(١) في المطلق والشروط من مقدمة الواجب. وقوله في الجعل والمجعول بالذات:

الجعل للشئ بسيطاً يعرف
وليس جعل الذات ذاتاً يعقل
كذلك لا يعقل جعل الذاتي
ولا كذلك العرض المفاوق
والحق مجعوليّة الوجود
وجعل شئ شئاً شيئاً المؤلف
إذ ليست الذات لها التخلل
أو عرضي لازم للذات
فإن إمكان الثبوت فارق
بالذات لا ماهية الوجود

فانظر إلى هذا البيان الجزل والقول الفحل والأسلوب السهل والتعبير الرصين عن أدق معاني الفلسفة وأسمائها بغير تكلف وبلغة سليمة ناصعة لا تجد فيها فضولاً ولا خللاً كما وجدنا المنظومات الأخرى في الفنون لاسيما بعض المنظومات الفلسفية ومن أين متحت دلوك في هذا القليب تغترف الماء الزلال بل الدر الثمين وما سقناه من الأبيات إنما هو غيض من فيض كشاهد على ما تقول^(٢).

(١) إشارة لتأليف الكمباني نهاية الدراية في شرح الكفاية للأخوند الخراساني.

(٢) الشيخ المظفر، مقدمة حاشية المكاسب.

وفي الجملة نلاحظ أن الأدب النجفي يتضمن في سماته العامة رؤى روحانية تسمو إلى عالم التجرد سواء كان يمثل الغزل والنسب أو الرثاء والتفجع أو الحكمة والعرفان ولا يخفى أثر التنوع المجتمعي وانعكاسات المعتقدات والإيديولوجيات المختلفة التي تعيش في النجف بما تمثله من إثنيات عرقية وقومية فقد مارس شعراء النجف وأدباؤها ترجمة الكثير من روائع الأدب العالمي واستوقفتهم الأبعاد وروح الزهد والتفرغ للعبادة، كما أن من الأسباب لهذا التوجه وجود مقبرة كبرى ربما تعد في المرتبة الثانية إذا لم تكن الأولى حيث كان لها وقع واسع على أخيلة الأدباء ومنظوماتهم.

وقد زخر التاريخ الأدبي للنجف في مجال شعر الحكمة والأراجيز والمنظومات الفلسفية، ومن أمثلة ذلك المعارضات الشعرية التي نظمها أعلام النجف حول (طلاس إيليا أبو ماضي الشهيرة بـ «لست أدري») كما في الرائعة الفلسفية للشيخ عبد الحميد السماوي بحيث أنه تلقى رسالة من أبي ماضي يطريه فيها بالتقدير والإعجاب بل يذكر الحوماني عندما زار أبو ماضي في نيويورك بأنه قال له عن السماوي: أقول بكل صراحة ولا تثريب علي في ذلك قد كان عقلي سلبياً وأصبح إيجابياً وقد تراجعت عن بعض آرائني والاعتراف بالواقع فضيلة^(١).

كما أن للسماوي قصيدة من مزدوجاته عنوانها -آراء وصور- عارض بها -الأشباح الثلاثة- لإيليا أبو ماضي^(٢).

وكذلك الشاعر المبدع صالح الجعفري في موشحاته ومزدوجاته ومثلثاته ورباعياته وما ترجمه من الشعر الرائق الذي يعكس صورة من هموم الأديب النجفي وانعكاس قراءته للفلسفة الاجتماعية.

وما في شعر الشيخ محمد جواد البلاغي والشيخ محمد حسين الكمباني والشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء والشيخ محمد جواد الجزائري والشيخ محمد طاهر الشيخ راضي والشيخ محمد رضا الشيبلي والشيخ عبد المنعم الفرطوسي والسيد مير علي أبو طبيخ والسيد عباس شبر والشيخ علي الشراقي والسيد محمد سعيد الجبوي والسيد محمود الجبوي والشيخ مهدي الحجار ومحمد صالح شمسه ومحمد صادق القاموسي ومحمد جمال الهاشمي والقائمة تطول، بل جل الشعراء النجفيين. وليس أشهر من رباعيات الخيام التي ترجمها الشاعر الكبير أحمد الصافي النجفي وفي كل ما قدمه بدواوينه من أفكار فلسفية طبعت خواطره وهو اجس نفسه بسبب ولعه الخاص بالشعر الصوفي وكان لعنايته واهتماماته بالدراسات الفلسفية أثر واضح يفسر تعمقه في الجانب التأملي لعقلانيته

(١) نشر محمد علي الحوماني في مجلته (العروبة) معارضة الطلاس لإيليا أبو ماضي بقصيدته الرائعة (اثباج الطبيعة) ثم اتفق له إن زار الشاعر في مهجره بأمريكا. انظر الخاقاني شعراء الغري ٣: ٣٤٥.

(٢) المصدر السابق ٣: ٣٠١.

وتفكيره الفلسفي الذي انطبع على ذاته ونفسيته وهناك من العوامل الأخرى المؤثرة عليه كعلمه اللغة الفارسية واطلاعه على شعر الخيام وبهار وعشقي والرومي والمنوجهري وسعدي وعارف القزويني ثم أن الدراسات الدينية في النجف التي تمنح الطالب اهتماماً في مناهجها للفلسفة والمنطق^(١).

وفي صدد هذا الحديث لا بد من استعراض ما فاضت به قريحة المظفر من شعر نزع في قسم منه إلى تصوير بعض الخواطر الفلسفية والنفسية كما نال استحسان الأدباء له^(٢)، ومن ذلك قصيدته في رثاء الإمام الجواد قوله:

حي قلباً تذييه الحسرات	إنما الموت في التصابي حياة
إن من عاش في الحياة خلياً	ميت عاش فارتمته الحياة
كل ما في الوجود عندي لولا	فئة تجتني الغرام جناة
كل ما تعرف الوري عن حياة	النفس في غير جها منكرات
أي هذا الخلي حي على الحب	فهذي المناهل المترعات
خل في ذلك الفضاء سبيل الـ	قلب حيث القلوب منتهلات
أترى القلب يستقيم سبيلاً	وحنابا الضلوع منحنيات
إنما الماء بالإناء فلا تطبع	إلا بظرفه البيئات
أيها المدجون للمنهل الـ	عذب قفوا لي فللرفيق أناة
أوقدوا لي من نور حبي مصباحاً	فقد أظلمت بي الطرقات
ظلمات هذي الحياة ولا	مصباح إلا ما أوقدته الهداة
عنصر في الوجود كونه الله	فكانت بنوره السنيرات
مثل النور والزجاجة والـ	مصباح أنتم وأنتم المشكاة
أنتم النور للكليم على الطور	وأنتم لآدم الكلميات ^(٣)

(١) انظر فوزي علاوي رسم الطائي، رساله المخطوطة لنيل درجة الماجستير الموسومة الحكمة والزهد في شعر أحمد الصافي النجفي، كلية الآداب، الجامعة الحرة في هولندا ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

(٢) الخاقاني في شعراء الغري ٨: ٤٦١.

(٣) مخطوطة الديوان الذي قام بإعداده وجمعه الأخ الفاضل محمد رضا القاموسي. وانظر الخاقاني شعراء الغري

٨: ٤٥١-٤٨٤.

على أن الاستطراد في هذا الباب لا تفهيه هذه الإشارة الموجزة سواء بالنسبة للمظفر أو لما يتعلق بتراث النزعة الفلسفية في الأدب النجفي.

خلاصة الجهد الفلسفي في السيرة العلمية للشيخ المظفر:

يجد الباحث في قراءة السيرة العلمية للمظفر إنه اتجه منذ بواكير حياته العلمية نحو الاهتمام بدراسة العلوم العقلية والحكمة، وقد تهيأت له فرص البحث والدراسة والوقوف على دقائق هذه العلوم المعقدة التي تحتاج إلى التأمل والفحص والتروي عند الإحاطة بالأفكار التي تطرح في مباحثها.

ومن حسنات الدهر أنه أحرز خلال حياته الدراسية توفيقاً يتمثل في أصالة المكون الذاتي لشخصيته وهمة عالية المتجدرة من الواقع العلمي والتربوي لأسرته الكريمة المنبت، العريقة المحتد التي انطبعت سماتها على متبنياته الفكرية، وارتسمت فيما خطه وسجله بقلمه، وما كسبه من ثمرة تحصيله بحضوره على الأفاضل من أهل الفن والاختصاص، مع قوة شغفه والجادبية الروحية لما عرف به من الوفاء لأساتذته مما أثرى تطلعه إلى الاستزادة من الدقة والتنقيب بدرجة طفت على مفردات اهتماماته في شتى ما خطط له من مناهج وآليات، أو فيما كتبه ونشره من دراسات وبحوث.

وقد تميزت دراساته بالجدة، والإحاطة الموضوعية، والوصول إلى نتائج تنبئ عن إلمام واسع وإطلاع في محصلة الأفكار المطروحة فقد توصل - رحمه الله - إلى نتائج في غاية الدقة والصوابية سواء بما طرحه من أفكار^(١)، أو ما تطلع إليه^(٢)، أو نجح فيه من طموحات^(٣). ولا أجدني مبالغاً القول باعتباره (رائد التجديد في الفكر والإصلاح الديني) في الجامعة النجفية.

(١) يغنيا شاهداً تأليفه المنشورة المشهورة وفي مقدمتها كتاباه المنطق وأصول الفقه وهما لم يزالا منذ نصف قرن إلى اليوم مصدر الدراسات في الجامعات الدينية، ومن الجدير بالإشارة تقرير الإمام الراحل السيد الخوئي وهو يتعرض مراحل التطوير لمدرسة النجف في الدراسات الأصولية فيقول: "وكنتم منذ زمن بعيد أرغب في أن يؤلف كتاب في هذا العلم تلام أبحاثه العالية ويعمم تدريبه على طلاب العلوم الدينية حتى قدم إلي العلامة الحجة المظفر ما ربه من المباحث الأصولية ترتيباً جميلاً فألقته بحمد الله وأقياً بالمقصود، وجامعاً بالموجز من القواعد والأصول التي تدور عليها رحي الأبحاث في عصرنا الحاضر. وجدير بطالب العلم أن يدرس هذا الكتاب ليتبهاً بذلك للانتفاع بالدراسات العالية". انظر مقدمة أصول الفقه للمظفر الطبعة الأولى سنة ١٣٧٧ هـ

(٢) انظر مذكراته التي دونها ونشرت أخيراً بتحقيق أخينا بالروح محمد رضا القاموسي، وما أفاضه الشيخ من خواطره وهواجسه في أثره المخطوط (آراء صريحة).

(٣) مؤسساته الخالدة متدى النشر والمجمع العلمي الثقافي وكلية الفقه وغير ذلك وقد استوعبت جميعها طلابه الذين يمثلون طليعة المفكرين والعلماء من رواد النهضة الحديثة في العراق وخارجه.

ولا أدلّ على ذلك من اهتمامه وسعيه الدؤوب في ضرورة التفكير إلى إعادة النظر في المنهجية التي يجب التماسها في عرض الفكر الكلامي والتراث العقائدي والرؤى الفلسفية لبنية الفكر الإسلامي الحديث في مواجهته لخطاب النهضة الحديثة إبان القرن الماضي وإبراز الدور المعرفي الضخم الذي تميزت به مدرسة النجف بروائع اتجاهاتها الفكرية والإيديولوجية وملاحقتها لمستوى التطور في الساحة العلمية إسلامياً وعالمياً حيث نراه يعيش هذا الهم الكبير ولذا نراه يقرر بقوله: «نحن اليوم في قمة الصراع العقائدي والفكري الذي يستهدف فيه القضاء على البقية الباقية من الإسلام. وكل مسلم مؤمن برسالة الدين الإسلامي لا بد أن يشعر شعوراً عميقاً بأن عليه واجباً ثقيلاً ينوء فيه الأبطال المجاهدون من الرجال»^(١).

ومما يبرز جهده الفلسفي بهذه المتانة والاستيعاب وحضوره الأبحاث العالية في أصول الفقه والفلسفة عند أستاذ الفن الأصولي الفقيه العارف المتأله الشيخ محمد حسين الكمباني الأصفهاني^(٢) حيث لازمه ملازمة قوية دامت خمسة عشر عاماً وانطبع بكثير من آرائه في الأصول والفلسفة وكتب الكثير من أبحاثه ودروسه، فقد ترسم خطى منهجيته لدراسة الأصول في كتابه (أصول الفقه) وتقسيم مباحثه^(٣) الذي يمتاز بتبويه الحديث الذي استقاه من أستاذه.

كما يلمس القارئ هذا الشعور والوفاء فيما كتب المظفر عن أستاذه في مقدمات كُتبه الفقهية والفلسفية وفي مقدمته لكتاب الأسفار وغير ذلك من رسائله ومقالاته^(٤).
وأما كتابه المنطق الذي أجاد فيه (التوفيق بين ما يسميه هو بمنطق الفلاسفة والمنطق الدارج)^(٥).

وقد أضفى إطلاع المظفر وتوفره على الإحاطة بدراسات علم الفلسفة واهتمامه بتدريسه لتلاميذه سواء في جلسات درسه الخاص الذي كان يعقده لخاصة طلابه، أو محاضراته التي

(١) المظفر، افتتاحية مجلة النجف السنة الخامسة العدد الأول جمادى الأولى ١٣٨٢هـ - تشرين الأول ١٩٦٢م.

(٢) أشار المظفر في مقدمة كتاب المنطق إلى أنه تلقى دروساً في الفلسفة عند السيد الميرزا حسن البجنودي.

وذكر تلميذ المظفر المرحوم السيد محمد حسن القاضي في كتابه المخطوط عن أستاذه ما دلّ فيه على تلقيه

دروساً في الفلسفة والعرفان عند والده العارف المقدس الشهير الميرزا السيد علي القاضي.

(٣) كما يشير المظفر، أصول الفقه ١: ٧.

(٤) محمد رضا القاموسي، مقدمة مخطوطة ديوان المظفر.

(٥) مقدمة كتاب المنطق للمظفر الطبعة الأولى.

ألقاها في أكاديميته العلمية (كلية الفقه في النجف)^(١)، وإن هذه الدروس الفلسفية خللت بجد الإمكان عن التعقيدات اللفظية والمبهمات المعنوية التي توجد غالباً في تأليف من كتب قبله في هذا الموضوع^(٢).

ومما يبرز عناية الشيخ وفهمه للفلسفة ما غطت بها مساحة كتاباته ومحاضراته برغم ما يعسر منها على غيره فقد تميّز بأن «يصوغها صياغة أدبية أو يفرغها في قالب أدبي من التعبير وأن يضم إلى عمق المادة جمال العرض وأكثر ما يبدو في كتابه أحلام اليقظة - وهو هذا الكتاب - حيث يناجي فيها صدر المتألهين ويتحدث معه فيما يتعلق بنظرياته في الفلسفة الإلهية العالية ويتلقى منه

(١) طبع البعض منها في أعداد من مجلة النجف، وأعدت طباعتها ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م دار الزهراء في بيروت بعنوان (قطوف دانية).

وبإعداد وعناية تلميذه السيد محمد تقي الطباطبائي التبريزي طبعت مجموعة بعنوان (الفلسفة الإسلامية) تتضمن محاضراته التي ألقاها بنفسه بين عامي (١٩٥٨ - ١٩٦٢ م) على تلاميذه أثناء تدريسه الفلسفة الإسلامية في السنوات الثلاث الأولى لتأسيس كلية الفقه في النجف الأشرف، وقد ذكر الناشر في كلمته بأنها: "تمثل في الواقع الكراسات والأوراق التي وزعها الشيخ في حينه بعد أن تم طبعها على جهاز رونيو (استنسل) في سنوات التدريس، حفظها بعض تلاميذه حينما أضعها آخرون ومضت على ما حفظ منها كزّ الغداة ومرّ العشي حتى آلت إلى الاصفرار وكادت أن تنمحى فلا يبقى لها أثر ولا عين".

(٢) طبعت المحاضرات للمرة الأولى بمطبعة أمير في قم عن مؤسسة دار الكتاب "الجزائري" ١٤١٣ هـ وهي في (١٤٩ صفحة) موزعة بين طيات الكتاب على شكل دروس منها سبعة دروس أقيمت على طلاب السنة الأولى بعنوان (مباحث الوجود) تبدأ بالتمهيد وتنتهي بالدرس المعنون بـ -إعادة المعدوم- وثمانية دروس لطلاب السنة الثانية الدرس الأول منها في (مباحث الوجود الذهني) وهي في (١٤٩ صفحة) موزعة بين طيات الكتاب على شكل دروس منها سبعة دروس أقيمت على طلاب السنة الأولى بعنوان (مباحث الوجود) تبدأ بالتمهيد وتنتهي بالدرس المعنون بـ -إعادة المعدوم- وثمانية دروس لطلاب السنة الثانية الدرس الأول منها في (مباحث الوجود الذهني) وآخرها في بحث موضوع (الجهات اعتبارات ذهنية) وكانت المحاضرات في السنة الثالثة تتعلق في مباحث (العلة والمعلول) وأما محاضرات المظفر الفلسفية على طلبة الصف الرابع وهي السنة المتهية في كلية الفقه فقد أملاها عام ١٩٦١ - ١٩٦٢ م وهي موزعة على اثنين وثلاثين درساً يبدأ الدرس الأول منها حول (الفلسفة وعلم الكلام) وتاريخ إلقائه يوم الثلاثاء المصادف ١٠ / ١٠ / ١٩٦١ م والدرس الأخير في البحث حول (دخول الشيء في القضاء والقدر) وتاريخ إلقائه يوم الأربعاء ١١ / ٤ / ١٩٦٢ م.

وآخرها في بحث موضوع (الجهات اعتبارات ذهنية) وكانت المحاضرات في السنة الثالثة تتعلق في مباحث (العلة والمعلول) وأما محاضرات المظفر الفلسفية على طلبة الصف الرابع وهي السنة المتهية في كلية الفقه فقد أملاها عام ١٩٦١ - ١٩٦٢ م وهي موزعة على اثنين وثلاثين درساً يبدأ الدرس الأول منها حول (الفلسفة وعلم الكلام) وتاريخ إلقائه يوم الثلاثاء المصادف ١٠ / ١٠ / ١٩٦١ م والدرس الأخير في البحث حول (دخول الشيء في القضاء والقدر) وتاريخ إلقائه يوم الأربعاء ١١ / ٤ / ١٩٦٢ م.

الجواب بصورة مشروحة وبعرض قصصي جميل. ولا أبالغ إذا قلت أن الكتاب فتح كبير في الكتابة الفلسفية فلا تشكو الفلسفة شيئاً كما تشكو الكتابة التي لا تخضع لها أدواتها، وقد حاول الشيخ المظفر أن يخضع الكتابة للفلسفة أو يخضع الفلسفة للكتابة ويجمع بينهما في كتابه هذا^(١) وإن أسلوب الحوار القصصي الذي استعاره المظفر كان له فيه قصب السبق لفهم الكثير من القضايا الفلسفية^(٢) كما أن له انعكاسات على أسلوبه في جل كتاباته التاريخية والأدبية بسبب أنه «كان يجري في الكتابة كما يجري الماء من غير أن يظهر عليه شيء من الكلفة أو التصنع، وينساق القارئ معه كما ينساق الماء على منحدر من الأرض من دون أن يعرقل سيره شيء ولا يصطنع في الكتابة هذه المحسنات البديعية التي تصرف الكاتب عن الانسياق مع الفكرة وتصرف القارئ عن مجارة الموضوع»^(٣).

ومن آثاره الفلسفية كتاب شرع في تأليفه بمناسبة الذكرى الألفية لابن سينا باسم «فلسفة ابن سينا» نشر منه مقالات بعنوان: المشاؤون والإشراقيون وابن سينا^(٤)، والمثل الإفلاطونية عند ابن سينا. وفلسفة ابن سينا^(٥)، وبحوثه الرائعة في حرية الإرادة ومسألة القضاء والقدر، ودراسته عن الفيلسوف الكندي، يضاف إلى ذلك كتابه عقائد الإمامية الذي هو جزء مما كان يطمح لإنجازه كموسوعة عقائدية للشيعة الإمامية الإثني عشرية وغير ذلك كثير مما نشر أو لم ينشر بعد.

ويجد الدارس حياة المظفر العلمية وجهوده الفلسفية ما نوهنا عنه في تأثير دراسته للفلسفة على أسلوب بقية ما اهتم به وسجله من تراجم الأعلام إلى مقدمات الكتب التي دون تصديراً لها ومنها على سبيل المثال كتاب (جامع السعادات) للمولى النراقي فقد ضمنها دراسة ضافية لعصر النراقي والتيارات الفكرية التي سادت فيه منطلقاً من اهتمامه وعنايته الفائقة بما يخص ملامح مما تعكسه دراسات الفلسفة وتأثيرها على مستوى الأخلاق ماراً بالظروف التي أنتجت

(١) الشيخ محمد مهدي الآصفي، مدرسة النجف وتطور الحركة الإصلاحية فيها مطبعة النعمان في النجف: ٦٨. ومقالة كذلك بعنوان (الشيخ محمد رضا المظفر من رموز الإصلاح في مدرسة النجف الأشرف) جريدة الشهادة العدد (٢٢٤ - صفحة ١٣) بتاريخ الثلاثاء ٢٩ / أيلول / ١٩٨٧ م.

(٢) ربما كان الشيخ نديم الجسر مؤلف كتاب (قصة الإيمان) قد سبق له أن اطلع على بحوثه فجرى على منواله في كتابه المذكور لأن المظفر ألف كتابه في ١٢ / ربيع الثاني / ١٣٦٥ هـ انظر القاموسي في مقدمة ديوان المظفر. خاصة وقد نشر في مجلات عديدة منها العرفان والهاتف والدليل والفكر وغيرها.

(٣) الشيخ الآصفي، المصدر السابق.

(٤) وهو بحث نشره في مجلة العرفان الصادرة في مدينة صور بليان.

(٥) وقد نشرها في مجلة البذرة في النجف التي كان يحررها طلاب متدى النشر.

نزعات اتسمت بالروحانية ولكنها غريبة في مؤداها عن السلوك الديني السليم بسبب المغالاة والتطرف وما أولدته في مخاضها من فرق وطوائف قريبة من المنحى الباطني. وما اعتبره الشيخ سبباً لظاهرة الفتور العلمي وظهور النزعات الغريبة «الوضع السياسي والاجتماعي في ذلك القرن من نحو التفكك واختلال الأمن والحروب بين الأمراء والدول التي اصطبغت على الأكثر بصبغة مذهبية...»

فأوجب ضعف ارتباط رجال الدين بالحياة الواقعية والسلطات الزمنية مما دعا عادة إلى الزهد المغالي في جميع شؤون الحياة ونشوء نزعة التصوف على أنقاض الفلسفة الإشراقية الإسلامية المطاردة المكبوتة التي سبق أن دعا لها أنصار أقوياء كالمولى صدر الدين الشيرازي وأضرابه وأتباعه...^(١).

وفي مقدمة دراسته لتخميس القصيدة الشهيرة بالأزرية تراه عندما يتطرق الحديث عن ثقافة ناظم القصيدة الشيخ محمد كاظم الأزري ينبه إلى أنه لم يذكر عن شاعرنا ماذا درس في النجف وعلى من تتلمذ وبأية درجة كانت ثقافته غير أن الذي يقرأ شعره يرى فيه لفتات الفاضل العالم بالمعارف الإسلامية بل أكثر من ذلك يجد أنه درس الفلسفة وفهم دقائقها وإن كان يقول: كفى رويدك واقصري يا هذي هيهات ليس الفيلسوف بهاذي وإلا فلا تخال غير الدارس للفلسفة المتذوق لها يتمكن أن يقول في ألفيته في مدح أمير المؤمنين عليه السلام:

وهو الآية المحيطة في الكون	ففي عين كل شيء تراها
وهو الفرد الذي مفاتيح علم	الواحد الفرد غيره ما حواها
وهو طاوس روضة الملك بل	ناموسها الأكبر الذي يرعاها
وهو الجوهر المجرد منه	كل نفس مليكها سواها
لم تكن هذه العناصر إلا	من هيولاه حيث كان أباهها

ففي هذه الأبيات:

أولاً- تلمح النزعة الإشراقية إلى القول بوحدة الوجود ذلك قوله (ففي عين كل شيء تراها) وأراد بالعين الوجود العيني للشيء كما هو اصطلاحهم. وثانياً- قوله (طاووس روضة الملك) وهو اصطلاح عرفاني المسمى عندهم بالعنقاء ويقصدون به الملك الروحاني المدبر أو العقل الفعال وكذلك كلمة (ناموسها الأكبر) من اصطلاحهم.

(١) مقدمة كتاب جامع التعدادات بقلم الشيخ المظفر.

وثالثاً- في البيتين الأخيرين يشير من طرف خفي إلى نظرية المثل الأفلاطونية في أحداث تفاسيرها الدقيقة فيطبق المثل المجرد للنوع الإنساني على الإمام كما هو رأي بعض الفلاسفة الإشرافيين ولذلك هو يعبر عن الإمام بالجواهر المجرد الذي منه أشخاص النوع تمتد في تكوينها وتزكية أخلاقها بتدبير المليك المصور تعالى شأنه.

ويشير إلى نظرية السببية استطراداً وهي عنده بموضع الاعتبار فيقول من قصيدة:

هبي له تصلي إلى حرم الغنى لا بد من سبب لكل مسبب
وهكذا تجد في أبيات كثيرة إذا تدبرتها أن الرجل صاحب فلسفة وعلم فضلاً عما ينطق به شعر وبراعته من دراسته للعلوم العربية والإسلامية^(١).

ولا نستطيع بهذه الدراسة السريعة استعراض جميع ما رشح عن يراع شيخنا المظفر الذي توزع على مساحة واسعة من الدوريات العراقية والعربية فقد عالج قدس سره- في بحوثه مسائل في غاية الأهمية والدقة والتعقيد بخاصة ما تعنيه العقيدة والحكمة الإلهية^(٢) حيث حاول من خلالها تبسيط مفاهيمها وعرضها بأسلوبه الرائع ليضعها في متناول المعنيين.

وفي تصديره لكتاب (مشهد الإمام)^(٣) يستشعر روحانية مدينة النجف بقديسية جدث الإمام علي عليه السلام فيها فتراه في الختام يقول:

وحقيق بمن تمسك بالعروة الوثقى من خدمة سيد الكونين ورئيس الموحدين وإمام الإلهين
أن يستلهم من روحه الجبارة ونفسه العظيمة الطاهرة المؤمنة ما يجعل منه عاشقاً للحقيقة المجردة
وملهما يرنو إلى نور الحق الأبلج^(٤).. ونخلص بالتالي إلى نتيجة:

١- أصالة مدرسة الفلسفة الإسلامية في النجف وازدهارها عبر تاريخ طويل يمتد بأصوله إلى مدرسة الحكمة الإلهية التي رسخ كيانها إمام الموحدين علي بن أبي طالب عليه السلام ولمساهماتها الجادة بأعلام الفن، البناء بالتدريس والتأليف ومواكبة التطوير وما يستجد بالساحة الفكرية نظراً لما تمتاز به من التنوع وتلاقح الأفكار بين رجالها الذين استوطنوا للمجاورة والتحصيل والمحاورة وهم ينحدرون من

(١) مقدمة تخميس الأزرية من منشورات المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م.

(٢) من ذلك أجوبته على أسئلة شغلت الساحة الفكرية، ومنها بحوث حول الإمامة وكذلك ما ألح إليه في ثانيا مقالاته وخطبه التي نأمل أن تأخذ طريقها إلى النشر في معنى الوفاء لهذه الشخصية المعطاءة.

(٣) كتب الشيخ تصديره للجزء الأول بتاريخ ١٧ / جمادى الأولى / ١٣٧٢ هـ والكتاب من تأليف محمد علي جعفر

التميمي وطبع في مطبعة دار النشر والتأليف بالنجف ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م.

(٤) هذا ما اقتضاه الاختصار في استعراض اهتمامات الشيخ المظفر الفلسفية ومدى تفاعله مع دراساته وطموحاته

في العلوم العقلية عسى أن يحالفنا التوفيق لاستكمال ذلك في دراسة موسعة في المستقبل.

مجتمعات وشعوب مختلفة جمعتهم وحدة الهدف ونبيل الغاية بل أن ما يوفره الدرسي النجفي للفلسفة ميزة الترابط والاتصال النوعي المباشر بعيداً عن عامل الزمان والمكان، وبسبب افتتاح هذه المدرسة الإمامية في التلقي والإضافة وتجديد مفاصلها وعدم ضمورها منذ نشأتها عبر العصور كان لها انعكاسات فلسفية على دراسات الفقه والأصول والعقائد والأدب والمنطق، وكذلك تأثيرها في إقامة البنية المعرفية للتصوف والسلوك والسير والعرفان مما اختص بسمات ومواصفات متميزة.

٢- إن ما أثير حول محاربة الفلسفة ومواجهتها المضادة في مدرسة النجف لا يرقى إلى مستوى المبالغات التي شاعت عنها إلا بقدر ما يتناسب مع الظروف المحيطة زماناً وموضوعاً ومواقف منسوبة لشخصيات معينة كانت تبنى آراء في منهجيتها العلمية وهي حالة طبيعية صحية في إطار الدراسات الحوزوية، ((ومن الملفت للنظر أنه بالرغم من التشديد والمواجهة القاسية لدارسي الفلسفة فإن شعلة الدرس الفلسفي لم تطفئ في النجف، وأضحت مدرسة النجف الفلسفية هي المدرسة الأم التي شع منها الدرس الفلسفي في هذا العصر إلى حواضر مهمة في العالم الإسلامي فأوقد فيها جذوة المنحى العقلي في التفكير، وأشاع تداول دراسة الفلسفة مثلما فعل السيد جمال الدين الحسيني المعروف بالأفغاني فإنه بعد أن مكث تلميذاً في النجف لأربع سنوات هاجر إلى مصر فاهتم بتعليم الفلسفة هناك وتأسست على يديه حركة نشطة برز فيها مجموعة من تلامذته كالشيخ محمد عبده كانت تعنى بفن المعقول))^(١) والقول هو الدليل الفصل الذي يوفره تاريخ البحث الفلسفي للنجف الدال على التواصل والإبداع.

٣- كان لعمق دراسة الشيخ المظفر للفلسفة وتعلق نفسه بمباحثها إلى حد كبير الأثر الواضح على مجمل دراساته وبحوثه وأفكاره ومنهجه وأسلوب تفكيره، والسبب في ذلك أنه أتجه إلى البحث الفلسفي منذ بواكير حياته العلمية، وكما ألحنا سلفاً بتوفيقه للتلمذة على أساطين العلماء الربانيين وإدراكه جيلاً من صفوة العارفين الذين يندر أن يوجد بهم الزمان، وفي ظروف كانت تشهد العصر الذهبي للنجف في سيرها العلمي وهي تعيش مخاض التطلع إلى التجديد في مناهج البحث وطرق الدراسة التي أدرك من خلالها الشيخ المظفر أهمية الخبرة بالقواعد الفلسفية والمنطقية بخاصة تلك التي تركز عليها الأصول ودراساته الفلسفية^(٢).

(١) الدكتور عبد الجبار الرفاعي، تطور الدرس الفلسفي في النجف الأشرف: ٦٨ من بحوث موسوعة النجف الأشرف (الجزء الثامن) التي أصدرها الوجه طيب الذكر المرحوم الحاج جعفر الدجيلي، دار الأضواء بيروت ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

(٢) نشر إلى تقديم الإمام الخوئي لكتاب أصول الفقه السالف الذكر، وإلى رسالة الشيخ مرتضى آل ياسين حول كتاب المنطق بقوله مخاطباً: ((نما أجدرك منذ اليوم أن تدعى (المظفر) حقاً إذ فتح الله على يدك هذا الفتح المبين)) انظر آخر كتاب المنطق.

٤- من مزايا المنهج العلمي الذي التزمه المظفر الموضوعية في الطرح لدقائق المسائل الهامة التي تطرق إلى بحثها فيما تنعكس من خلالها المعية شخصيته الاجتهادية التي اكتسبها بسبب ((الخبرة الفلسفية والمنطقية وبخاصة تلك التي تركز عليها الأصول الفقهية بمختلف أشكالها))^(١) من ذلك النظريات العلمية التي اختص بها في تفسير (الأمر بين الأمرين) ومسألة (اجتماع الأمر والنهي) وما شاكل ذلك^(٢) بل له مطارحات فكرية ولغوية وغيرها مع كبار الأعلام^(٣).

٥- ربما لا نجانب الواقع إذا قررنا أن ما حققه المظفر من نجاحات في مضمار نتاجه الفكري على مستوى الفلسفة والمنطق والعقيدة والأصول كان السبب الداعي إليه إيمانه بمجدوى المبادرة وإيجابيتها للبدء بخطاب النهضة الجديد^(٤) وترسيخ دعائم الإصلاح الديني^(٥) بمختلف الاتجاهات والأساليب التي تحققت على يديه ولم يدركها تمام الإدراك جيله الذي عاصره إلا النخبة الذين يملكون رؤية مستقبلية صائبة بعيدة النظر^(٦)، وتلاميذه ممن لحق بركبه المبارك إكمال الشوط الذي بدأه أستاذهم المظفر وخطاه وفي علمه وعمله.

هذا هو القدر المستطاع تسجيله مختصراً لما يتعلق بموضوع البحوث التي دونها شيخنا المظفر -نضر الله وجهه- في هذه الإضمامة من إفاداته النافعة وهناك مسائل أخرى لها العلاقة بما لم نستطع الإفاضة فيه عسى أن يكون بعد العسر يسراً.
وفي الختام نتهل إليه تعالى بالتوفيق والسداد لما يحبه ويرضاه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(١) الحكيم محمد تقي، الأصول العامة للفقه المقارن: ٥٧٢.

(٢) الأصفي محمد مهدي، مدرسة النجف وتطور الحركة الإصلاحية فيها: ٦٩.

(٣) منها حوار مع الدكتور أحمد أمين حول تشكيل مؤتمر بجمع لواء الشبعة والسنة على صفحات مجلة الرسالة المصرية، ونقاشه مع الدكتور مصطفى جواد حول كلمة اللام والألف على كلمة فوضى على صفحات جريدة الهاتف النجفية، وما روي عنه بإلفاته النظر بورود خمس أغلاط لقوية في رسالة مجمع اللغة العربية في مصر التي أرسلها إلى المجمع العلمي العراقي -عندما كان المظفر عضواً فيه- وما نشره من إفادات حول (الفضاء والقدر) في مجلة النجف انظر المصدر السابق: ٧٦، جريدة البلد مقال محمود شيت خطاب المنشور بتاريخ ٢٥ / ٢ / ١٩٦٤م.

(٤) حيث ظهرت بوادر ذلك في أسلوب الكتابة الحديثة الذي بدأه المظفر في بحوثه ومقالاته واستكمل طلابه المسار من بعده.

(٥) يصف المظفر الشعور الذي كان يساور مفكري الإصلاح في تلك الفترة بأنهم ((أشبه بجمعيات سرية أو مجالس تمهيدية في طريق الإصلاح... وهي على بساطتها تمثل لي -والكلام للشيخ- مقدار التكتّم والخوف، وكان عملنا وتفكيرنا مقتصرأ على تفقد المفكرين من أصحابنا الذين يحون بالداء مثلنا)).

(٦) ومنهم المراجع العظام السيد أبو الحسن الأصفهاني والسيد البروجردي -قدس سرهما-.